حـــيـــاة
السيِّدة العـذراء مريم

(ينبوع الحياة)

إعداد

الياس شفيق نينو

جمعية الثقافة والتعليم الأرثوذكسية

منشورات مدارس الأحد

عمان – الأردن

الطبعة الأولى

٢٠٠٠

اسم الكتـــاب : حياة السيِّدة العذراء مريم "ينبوع الحياة"
مؤلف الكتـــاب : الياس شفيق نينو
صورة الغلاف : أيقونة السيِّدة العذراء "الينبوع المعطي الحياة"
(شرح الأيقونة على الصفحات الداخلية من رقم ١٥٧ الى رقم ١٦٠) .
المراجعة الآبائية والعقائدية :-
قدس الأب الأرشمندريت خريستوفوروس عطا الله
قدس الأب الإيكونومس الدكتور ابراهيم دبّور
قدس الأب الإيكونومس بولس (باجس) خوري
المراجعة اللغوية :-
الأستاذ ابراهيم قاقيش
أجاز الكتاب :
لجنة مدارس الأحد الأرثوذكسية بجلستها رقم ٩٩/٧-٢٠٠٠ تاريخ ٢٠٠٠/٤/١
وافق على طباعة ونشر الكتاب :
الهيئة الإدارية لجمعية الثقافة والتعليم الأرثوذكسية - عمان
بجلستها رقم ٩٩/٤١-٢٠٠٠ تاريخ ٢٠٠٠/٤/٣

رقم التصنيف : ٢٩٨٫٣٨
رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٥٨٩ / ٥ / ٢٠٠٠
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ١٦٨٧ / ٥ / ٢٠٠٠
(تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف من قبل دائرة المكتبة الوطنية)

الطباعة : شركة مطبعة مصري إخوان
هاتف ٤٦٣٨١٠٠ ص. ب ١٢٦٦ عمان – الأردن
الاخراج : مركز النسيم للكمبيوتر
عمان – جبل اللويبد – تلفاكس ٤٦٤٦٩٦٦

فهرس الموضوعات

المقدمـــــة ٥

حبل القدّيسة حنّة بالعذراء مريم ١٢

ميلاد العذراء مريم ودخولها إلى الهيكل ٢٢

خطوبة العذراء الكلّية الطهارة ٢٨

نموذج حيـــاة العـــذراء ٣١

بشارة سيّدتنا والدة الإله ٣٤

ميلاد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح بالجسد ٤١

ختانة ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح بالجسد ٥٩

دخول ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح إلى الهيكل ٦١

سمعان الشيخ يدخل إلى الهيكل ٦٥

سجود المجوس ٦٩

هروب العائلة المقدّسة إلى مصر ٧٣

عودة العائلة المقدّسة من مصر ٨٣

رقاد يوسف الشيخ البار ٨٨

عُرس قانا الجليل ٩٠

من هم إخوة يسوع ؟ ٩٨

المسيح يبيّن من هو المطوَّب ؟ ١٠١
العذراء وآلام ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح ١٠٣
والدة الإله عند الصليب ١٠٥
أمومة والدة الإله للعالم ١٠٨
تنزيل جسد يسوع عن الصليب ودفنه ١١١
والدة الإله وحاملات الطيب ١١٣
صعود ربّنا يسوع المسيح بالجسد إلى السماء ١١٧
حلول الروح القدس في يوم الخمسين ١١٩
زيارة العذراء للجبل المقدّس (آثوس) ١٢٥
تذمّر اليهود من والدة الإله ١٣٠
رقاد الفائقة القداسة سيّدتنا والدة الإله ١٣٢
ظهور العذراء بالجسد للرسل القدّيسين الأطهار ١٤٤
والدة الإله والكنيسة ١٤٧
شفاعة والدة الإله ١٤٩
تكريم والدة الإله ١٥٥
الينبوع المعطي الحياة ١٥٧
المصادر والمراجع باللغة العربية ١٦١
المصادر والمراجع باللغة الانجليزية ١٦٣

مقدمة

باسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد، آمين

كتب القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلان (٣٣٩-٣٩٧) بأن "حياة مريم هي قانون لحياة الكل" لأن مريم الثيوطوكس (والدة الإله) أصبحت أيقونة الكنيسة المتجدِّدة . يتضمّن هذا الكتاب معظم الأحداث الهامة في حياة العذراء المكرّسة لخدمة الله، وذلك من خلال فصول يبيِّن كل فصل منها حياتها من خلال ما يلي: الكتاب المقدّس، التقليد الشريف المقدّس، الكتابات الآبائية، التقاليد الليتورجية والأيقونات في الكنيسة الأرثوذكسية المقدّسة .

في الكتاب المقدّس هنالك تفاصيل غير كافية -أو حتى غير موجودة-عن الحياة اليومية للعذراء مريم وابنها ربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح؛ لأنه لم يكن قصد الإنجيليين إعطاء تفاصيل جغرافية ويومية عن حياتهما، بل كان هدفهم هو "أن كل من يقرأ لهم يؤمن بأن يسوع هو المسيح ابن الله، حتى أن كل من يؤمن به تكون له حياة باسمه" .

لذلك سوف نقرأ في هذا الكتاب عن عائلة السيِّدة، عن ولادتها، تربيتها منذ كانت طفلة يانعة تنمو في صباها المبكّر، وعن خطوبتها وأمومتها، عن خلفية الناس والأمكنة التي صاغت حياتها، عن أفكارها ونشاطاتها التي كانت مكرّسة لخدمة الله، ونتأمّل مكانتها البارزة في تجسُّد الله - الكلمة - الإله الإنسان يسوع المسيح . ثم نتبع هربها المحفوف بالمخاطر إلى مصر مع الطفل يسوع ويوسف الشيخ . وننظر إلى دورها خلال بشارة ابنها وأفكارها وأحاديثها وأعمالها خلال ما مرَّ به من: خيانة يهوذا الإسخريوطي، الجلد، السخرية، الصلب والموت والقيامة .

نقرأ موقفها وأعمالها في الكنيسة الأولى وعلاقتها مع الرسل وقربها منهم ومشاركتها لهم في نشر الإنجيل، ومحاولات اليهود تشويه سمعتها باختلاق الأكاذيب والإشاعات لهدم الإيمان بالمسيح . ورقادها وانتقالها بالجسد إلى السماء، وأخيراً علاقتها مع الكنيسة وشفاعاتها ووساطتها وكل ذلك من خلال التقليد الارثوذكسي الشريف المقدَّس .

إن ما عرف عن طفولة سيِّدتنا والدة الإله قد وُجد في الأناجيل المنحولة أو غير القانونية والتي عُرفت بالأبوكريفية(١) وهي مجموعة من الكتب تناولت مواضيع ظهرت في الثلاثة قرون الأولى الميلادية، ومع ذلك فقد استثنيت من الأناجيل القانونية؛ لأن معظم محتوياتها مادية وفيها الكثير من الأساطير الخيالية التي ذهبت بعيداً عن بساطة الإنجيل وقد رُفِض معظمها من الكنيسة ووفق على كل ما ورد فيها من تعاليم جيِّدة وصالحة، ويعتبر بعضها تاريخياً وترى فيها الكنيسة تراثاً فكرياً شعبياً مبكراً، وقد قدَّم هذا التراث للمؤمنين من خلال كتابات الآباء القدِّيسين، الأناشيد، التراتيل ورسم الأيقونات التي تركت أثراً كبيراً على تطور اللاهوت المريمي وهي أصل أربعة أعياد رئيسة لوالدة الإله، رافقتها عدة حالات في رسم أيقوناتها، عُرفت من الأناشيد المرافقة لها لأنها تمثِّل الحياة الأرضية للقديسة العذراء مريم وهي :-

١ - حبل القدّيسة حنّة بوالدة الإله الفائقة القداسة في اليوم التاسع من شهر كانون الأول .

٢ - ميلاد سيِّدتنا والدة الإله الفائقة القداسة والدائمة البتولية مريم في اليوم الثامن من شهر ايلول .

---

١ - الأبوكريفا **Apokrifa** : كلمة يونانية تعني "خفية" أي "سرية" وقد أُخذت هذا الاسم لأنها كانت في حوزة جماعة معيّنة تنفرد بها أو لأنها كانت مخفية ولا يُسمح بقراءتها في الكنائس، ومصادرها رغبة بعض المسيحيين في الحصول على تفاصيل عن حياة العذراء وعن حياة يسوع لم تكن موجودة في الأناجيل القانونية .

٣ - دخـــول سيِّدتنا والـــدة الإلـــه الفائقة القداسة إلى الـــهيكل في اليوم الحـــادي والعشرين من شهر تشرين الثاني .

٤ - رقـــاد سيِّدتنا والـــدة الإله الفائقة القداسة والدائمة البتولية مريـم في اليوم الخامس عشر من شهر آب .

ولما كانت مريم هي حواء الجديدة التي اكتملت فيها كـــل تطلعـات العهد القديم، حيـث تحقّق بها الوعد الإلهي لجدّينا الأوّلين بعد أن ســقطا في خطيئة معصيـــة الله فطردهما من الفـــردوس، ولكـــن لعظـم محبتـــه للإنسان وعدهما بالمخلِّص الذي سيولَد من نسل المرأة (حـــواء) والـــذي سيسحق رأس الحيّة (الشيطان) (تك ٣: ١٥) ويفتـــدي العالم من الخطيئـــة ويُعيد الإنسان إلى الحياة الفردوسية، وما هذا النسل الاَّ ربّنـــا ومخلِّصنـــا يسوع المسيح المولود من العذراء مريم .

أَخذ هذا الوعد وهو أوَّل الوعود الإلهية كلّها يُعْلَنُ في جميع حوادث الزمان المتوالية على مُقتضى الزمان السابق تعيينه، وكان الـــربّ يكـــرِّر وعده هذا على مَرّ العصور ليهيء الناس لقبول مخلِّص العالم الموعود به، وانقضت خمسة الاف سنة في الانتظار وتمت أخيراً جميـــع النبـــوءات فـــي الوقت المحدَّد الذي عيَّنه الرب الإله، وتوارت ظلال العهد القديم التي كانت تمثِّل أشخاص العهد الجديد، وموضوعها مخلِّص العالم ربّنا يسوع المسيح المولود من العذراء الفائقة القداسة، فالأرض البكر ألتي لم تحرثْها يد ولـم يسقِها مطر واستُعملت لتكوين الإنسان الأوّل هي في رأي الآباء القديّســين الممثِّل الأول للعذراء مريم التي ارتضـــى الله الكلمـــة أن يتجسَّـــد منـــها، وهـــي الفردوس الحيّ الذي أنبت الله فيـــه شـــجرة الحيـــاة (تـــك ٢: ٩)

المغروس فيها بالمشيئة الإلهية، إذ حملته في جوفها وولدته، وبه أولت الناس الخلاص الأبديَّ ومنحتهم الحياة الخالدة، وهذا ما أكّده الرب يسوع المسيح نفسه بقوله "من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يو ٦:٥٤) "إفرحي يا فردوساً حيّاً حاوياً في وسطه الرب عود الحياة، الذي حلاوته تحيي الساقطين في الفساد، إذا تناولوا منه بإيمان" (١) .

إن السلَّم التي رآها يعقوب في حلمه منصوبة على الأرض ورأسها يمسّ السماء" (تك ٢٨:١٢) ما هي إلاَّ رمز للعذراء التي دعتها الكنيسة المقدسّة سلّما روحية مولودة على الأرض وواصلة الأرض بالسماء، لأن الإله نزل بواسطتها إلى الأرض كما بسُلَّم، وفتح مدخل الملكوت السماوي لجميع المؤمنين به والملتجئين إلى حماية والدته القدّيسة "إفرحي يا سلّما سماوية بها انحدر الإله، افرحي يا جسراً ناقلاً الذين في الأرض إلى السماء" (٢) .

إن العليقة التي رآها موسى تتوقّد بالنار ولم تحترق (خر ٣:٢) تمثِّل العذراء التي حملت النور الإلهي في جوفها وبقيت عذراء منزهة عن كلَ شائبة، ولذلك دعتها الكنيسة والدة الإله العلّيقة التي لم تحترق، وتُصوِّرها محاطة بلمعان النار "افرحي يا علّيقة غير محترقة " (٣) .

إن البحر الأحمر الذي أجاز الإسرائيليين في قعره الجاف، وأغرق فرعون ومركباته وجنوده (خر١٤: ٢٢ – ٢٨) ما هو الاَّ رمز للعذراء التي صارت بميلاد الرب يسوع المسيح الطاهر منها، بحر هلاك لفرعون العقلي، ومياه نجاة للمؤمنين الحاملين بلا تذمّر صليب ابنها الإلهي "افرحي يا بحراً غرّق فرعون العقلي" (٤) .

١، ٢، ٣، ٤ : الأكاثيستوس (خدمة المديح الذي لا يُجلس فيه) .

إنّ عمود السحاب الذي ظلّل الإسرائيليين نهاراً وأضاء لهم ليلاً في خروجهم من مصر بقيادة موسى (خر ١٣:٢١) إنمّا يدل على القدّيسة مريم الدائمة البتولية التي استبانت سحابة منيرة حاملة الإله، وقائدة البشر إلى أرض الميعاد الحقيقية أي الملكوت السماوي "إفرحي يا عموداً نارياً مرشداً الذين في الظلام، إفرحي يا ستراً للعالم أرحب من الغمام" (١).

إنّ الصخرة التي ضربها موسى بأمر الله بعصاه في الصحراء فتفجّرت ماء روى الشعب العطشان (خر ١٧:٦) ما هي الاّ رمز للعذراء التي ظهرت بولادة ربّنا يسوع المسيح منها، ينبوع النعمة مروي المتعطّشين إلى الحياة الأبدية "إفرحي يا صخرة روت الظمأة من الحياة "(٢).

إن الأرض الكنعانية التي وعد الله أن يحقق فيها مواعيده للإسرائيليين وكانت تفيض لبناً وعسلاً حسب تعبير الكتاب المقدّس (خر ٣:٨) إنما هي رمز للعذراء التي أنبتت لنا خبز الحياة، لأنهّا هي الأرض الحقيقية الموعود بها التي يجري منها اللبن والعسل "إفرحي يا أرض الميعاد، إفرحي يا من يدّر منها اللّبن والعسل"(٣).

إن الفتية الثلاثة (شدرخ وميشخ وعَبْدَنَغو) الذين لم يخافوا غضب الملك البابليّ نبوخذ نصّر، فلم يسجدوا للخليقة دون الخالق، وطُرحوا في أتون النار المتقدة، وحُفظوا سالمين بقدرة العلّي (دا ٣ : ١٩-٢٣) كانوا سابق رسم للعذراء التي حملت بارىء العالم ولم تحترق بالنار الإلهية، وكما إن الفتية الثلاثة اتخذوا نار الأتون حياة وتجديداً، كذلك أحرز العالم تجديده بالعذراء الفائقة القداسة "إن مَولد والدة الإله قد حفظ الفتية الأطهار في الأتون سالمين"(٤) ؛ لأنهم سبقوا فرسموا ذلك بأجلى بيان، بانتصابهم في وسط النار وعدم احتراقهم.

١، ٢، ٣، ٤ : الأكاثيستوس (خدمة المديح الذي لا يُجلس فيه) .

وبمقدار اقتراب الزمان الذي كان ينبغي أن يظهر فيه فادي العالم على الأرض، كانت النبوءات عن هذا الظهور تبان بجلاء أكثر، فالملك داود سبق فأعلن نبوءات دقيقة عن العذراء، منها قوله "قامت الملكة عن يمينك، كل مجد ابنة الملك في خدرها ، بملابس مطرّزة تُحْضَر إلى الملك، في إثرها عذارى صاحباتها مقدّمات إليك" (مز ٤٥ : ٨-١٥) كما أنَّ أنبياء العهد القديم أعلنوا عن الحادث العظيم المزمع أن يتمّ في العالم بالعذراء، فإشعياء النبي هتف قائلاً"ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عِمّانوئيل - الذي تفسيره الله معنا- (إش٧:١٤) و(مت ١:٢٣) وهذا يدلّ على بتولية مريم في الولادة وبعدها .

كانت مريم مثالاً للنقاوة والصلاح . إنَّ كل الذّين كرهوا المسيح ولم يصدّقوا تعاليمه أو لم يرغبوا أن يفهموها كما تفهمها الكنيسة؛ والذين رغبوا أن يبشّروا بالمسيح حسب أهوائهم الشخصية، وكراهيتهم للمسيح وللإنجيل، وللكنيسة كرهوا العذراء مريم الكلّية القداسة، وأرادوا أن يقلّلوا من إكرام الأم لهدم الإيمان بالإبن، وذلك بخلق صورة مشوّهة لها بين الناس لإيجاد فرصة لهم ليُعيدوا بناء المسيحية على أسس مختلفة . إنَّ توجيه ضربة في تكريمها، يعني ضرب المسيحية من جذورها واقتلاعها من أساساتها، لأنَّ بداية تمجيدها في السماء فجَّر كراهية غير المؤمنين على الأرض، فبدأوا بنشر إشاعات وتعاليم مُغرضة عن والدة الإله، وظهرت البدع والهرطقات التي تنتقص من قدرها، فعُقدت بسببها المجامع المسكونية لدحضها وإعلان حقيقة القدّيسة العذراء مريم ومكانتها في الكنيسة وشفاعتها في السماء . لقد حاولتُ من خلال هذا الكتاب، وبنعمته تعالى، أن أُقدِّم ما وَصَلتْ إليه معرفتي القاصرة عن حياة الأقدس والأطهر من كلّ الخليقة، والرد بقدر معلوماتي المتواضعة على البدع التي

تناولت حياتها، وذلك من خلال ما يلي : الكتاب المقدّس، التقليد الشريف، كتابات الآباء القدّيسين، والتقاليد الليتورجية، ومن المعلومات التي وردت عن حياتها في الأدب الأبوكريفي وحَفِظها التقليد الكنسي للمساعدة على إظهار الحقيقة الكتابية والعقائدية . مُعترفاً بعجزي عن الإلمام بكل ما يتعلّق بحياة والدة الإله وعجز قلمي عن كتابة ما لا تسعه الكتب عن حياتها وأعمالها وظهوراتها وعجائبها التي لا تكاد توجد بلدة أو قرية أو مدينة في العالم لم ترتوِ من ينبوع إحساناتها المتدفقة بسخاء على مكرّميها والملتجئين إليها .

آمل أن يكون هذا الكتاب مدخلاً مفيداً لإيمان قويم وفهم صحيح للتكريم الواجب "لسيِّدتنا والدة الإله، الكلّية القداسة، الدائمة البتولية، الفائقة البركات، المجيدة" التي لكونها "أكرم من الشيروبيم وأرفع مجداً بغير قياس من السيرافيم" هي شفيعتنا أمام عرش ابنها، لأن "صلاة الأم مقبولة وغير مردودة عند السيِّد" .

وبنفس عميقة الإيمان أنحني أمام عَظَمة العذراء الفائقة القداسة أمّ ربّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، متضرّعاً إليها أن تقبل كلماتي العاجزة في تمجيدها، كما قَبِل ابنها فلسي الأرملة، آملاً من القُرّاء الغيورين عندما يتعلّموا عن حياتها العجائبية أن ينشروا هذه التعاليم بين أبناء الكنيسة لمحاربة البدَع القديمة الجديدة الواردة إلينا من الخارج، وأن يستمرّوا في مديح والدة الإله مع جميع الخليقة التي تمجِّد أم النور "بشفاعات والدة الإله، يا مخلِّص . خلِّصنا" .

الفصح المجيد ٢٠٠٠

خادم مدارس الأحد

الياس شفيق نينو

حبل القديسة حنّة بالعذراء مريم

"تحتفل كنيستنا المقدسة به في ٩ كانون أول "

نَسَبْ القديسة العذراء مريم :

تنحدر العذراء مريم من نسل ملوكي من عائلة داود الملك . اسم أبيها يواكيم واسم أمها حنة، تنحدر عائلة أبيها من سبط يهوذا من ناصرة الجليل، أمها ابنة متّان الكاهن من سبط لاوي وتنحدر عائلتها من بيت لحم اليهودية، وهكذا جمعت بين الملوكية والكهنوت .

كانت حياة والديها بسيطة ومستقيمة أمام الرب، كان أبوها يواكيم غنياً وله قطعان كبيرة من الأغنام والماشية، يُعيل الفقراء وكل الذين يخافون الله، يقسِّم كل شيء يملكه إلى ثلاثة أقسام : الجزء الأول لهيكل الرب وللذين يعبدون الله والثاني للأيتام والأرامل والغرباء والفقراء، والثالث يحتفظ به لنفسه وإلى عائلته وأهل بيته . كان الرب يضاعف له قطعانه وماشيته حتى لم يكن رجل مثله في كل إسرائيل.

تزوَج يواكيم من حنّة وهو في العشرين من عمره وعاش معها خمسين سنة لم يرزقا فيها بأولاد . هذه الحقيقة أحزنت الشيخين إذ أنه لم يعد لديهما أمل بأن نسلهما سيشاهد مسيًا (المسيح)، كما كان سائداً في ذلك الوقت فكرة أن عدم الإنجاب، هو لعنة من الله تعني انقراض النسل لأنهما لم يعملا بطريقة ترضي الله وتسرّه؛ لذا قاما بالنذر لخدمة الرب أي ابن أو ابنة يرزقان به .

كان من عادة أبناء إسرائيل أن يقدِّموا للرب تقدمات في عيد الأنوار الذي كان يحُتفل به مدة ثمانية أيام، وفي هذا الوقت تَقدَّم يواكيم ليقدِّم

تقدماته للرب، وعندما شاهده رئيس الكهنة احتقره ورفض قبول تقدماته بازدراء قائلاً له " لا يحقّ لك الوقوف مع الذين يقدّمون للرب، لأنك غير مثمر فلا تستحق أن تُقبل قرابينك، لأنّك لم تَنل بركة الله بسبب خطاياك الخفيَّة، ملعون كل من لا يُنجب ولم يُقم نسلاً في إسرائيل، كان الأَولى بك أن تحرِّر نفسك من اللعنة أولاً، ثم تحَضر أمام الله مع تقدماتك".

أُهين يواكيم أمام الناس لعدم الإنجاب وتراجع حزيناً، مخزياً، خجلاً من مجلس الرجال في هيكل الله ولم يَعُد إلى بيته، بل ذهب بعيداً في الجبال ونصب خيمَته وصام وقال "لن آكل أو أشرب حتى ينظر الله في أمري وستكون الصلاة هي مأكلي ومشربي" .

وكذلك حنّة فقد تركت مجلس النساء في الهيكل وعادت إلى بيتها تبكي في مرارة وحزن نادبة عدم إنجابها، وصلَّت إلى الله بحرارة قائلة "يا إله آبائنا باركني واسمع صلاتي، وكما فتحتَ رحْم سارة وأعطيتها ابناً هو إسحق (تكو ٢١ :٢-٣) فافعل بي هذا أيضاً، ثم رفعت نظرها فرأت عش عصفور على شجرة غار؛ تحسّرت على عُقرها قائلة "أيّ بطن حملني حتى أُلعن أمام بني إسرائيل وأُهان في هيكل إلهي ؟ ويل لي بماذا أُقارن نفسي ؟ أنا لست حتى كطيور السماء، لأن طيور السماء تخصب أمامك يا رب، بماذا أُشبِّه نفسي ؟ حتى إنني لست كالمياه، لأنه حتى إن المياه تنتج أمامك يا رب، ويل لي بماذا أُقارن نفسي ؟ لا أقارن نفسي حتى في أمواج البحر لأن هذه سواء أكانت ساكنة أم متحرِّكة فالأسماك التي فيها تمجّدك يا رب، بماذا أُشبِّه نفسي ؟ أفي الأرض ؟ حتى هذه أيضاً تُنتج في جميع الفصول وتمجِّدك يا رب .

بعد أن مكث يواكيم مدة من الزمن في الجبال، ظهر له ملاك الرب فخاف، فقال له "لا تخف يا يواكيم، أنا ملاك الرب، وقد أرسلني لأُخبرك

بأن صلواتك قد سُمعت وأعمالك الصالحة قد صَعدت أمام حضرته، ورأى خجلك وسمع تأنيبك لعدم الإنجاب، إن الله يعاقب الخطيئة لا الطبيعة، لذلك فانه عندما يُغلق رحم امرأة فلكي يفتحه بطريقة عجيبة ليُعرف أن الذي حُبل به هو من الله، ألم يفعل ذلك مع سارة التي كانت عاقراً فحبلت بإسحق في شيخوختها ؟ (تك ١٧:١٧)، وراحيل التي كانت عاقراً، ألم تنجب يوسف ؟ (تك ٣٠:٢٣-٢٤) الذي لم يصبح سيِّد مصر فقط، بل مخلِّص عدة أمم كان الجوع سيقضي عليها (تك ٤١:٥٦-٥٧)، من كان بين القضاة أقوى من شمشون وأقدس من صموئيل ؟ وكلاهما كانت أمه عاقراً (قضاة ١٣:٢-٣)، (١صمو ١:٢٠) إن زوجتك حنّة ستحبل بابنة لك تدعوها مريم، ووفقاً لنذرك سوف تكرّسها لخدمة الرب منذ طفولتها وسوف تمتلىء من الروح القدس وكما حُبل بها (مريم) من عاقر كذلك هي أيضاً ستحبل وهي عذراء، وتلد ابن العلّى مخلّص العالم، وهذه هي العلامة عندما تصل إلى الأبواب الذهبية في القدس ستقابل زوجتك حنّة المنزعجة من تأخرك هناك، وستفرح عندما تراك"، ثم اختفى من أمام يواكيم .

وبينما كانت حنّة في البستان ظهر لها ملاك الرب وقال لها: "حنّة حنّة لقد سمع الرب صلاتك وأرسلني لأبشّرك بأنك ستحبلينَ وتلدين ابنة وتسميّنها مريم، وستكون مباركة فوق جميع النساء وتمتلىء نعمة من الله وتخدمه في هيكله نهاراً وليلاً بالصوم والصلاة، ولن تفارق الهيكل حتى تبلغ سن الرشد ولن تعرف رجلاً، ثم قال لها: "قومي الآن واصعدي إلى أورشليم وعندما تصلين إلى الأبواب الذهبية ستقابلين رجلك وتكون هذه إشارة لكِ إنه سيتمّ كل ما قلته لك"، وهكذا كما أمر ملاك الرب اتجه يواكيم وحنّة كل من مكانه إلى المكان المحدَّد، فوصلت حنّه قبله وانتظرته مدة

طويلة وعندما ملّت الانتظار رفعت بصرها فرأت يواكيم من بعيد، ركضت إليه وعانقته معطية شكراً لله، وقالت "الآن أعرف أن الله باركني لأنني كنت قبلاً أرملة أمّا الآن فلا، لأني أنا العاقر سألد، لقد أبقيا وعد الله مكتوماً بينهما . وفي اليوم التالي بعد تقديم العبادة لله، عادوا إلى منزلهم وحبلت حنّه من يواكيم وكان هذا الحَدَث فرحاً عظيماً بين الأهل والجيران، وفي كل بيت اسرائيل .

إن تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية التي تتعلق بالعذراء تؤكد أنَّ ملاك الرب قال لأبيها يواكيم في عقمه "إن امرأتك ستحبل" وهذا لم يتم بدون اتحاد زوجي وبدون بذرة رجل، ومريم العذراء ليست هي الله ولم تستلم جسداً من السماء بل من مضاجعة رجل وامرأة وقد حُبل بها وفقاً لوعد إلهي مثل إسحق ويوحنا المعمدان، ولقد هُيئت لتساهم في العمل الخلاصي . ويقول القديس أمبروسيوس أسقف ميلان (٣٣٩ - ٣٩٧) بأنَ "من بين مواليد النساء لا يوجد أي واحد مقدّساً بالكليّة خلا الرب يسوع المسيح" وتعليم الكنيسة الأرثوذكسية بأن العذراء مريم قد حُبل بها من نسل يواكيم، وأن مدة الحمل كانت تسعة أشهر، لم يقل أي واحد من الآباء القدّيسين الأوائل بأن الله بطريقة عجائبية طهَّر العذراء مريم وهي في بطن أمِّها حنّة . يسوع المسيح فقط هو الوحيد البريء من أي خطيئة، بينما كل الناس الذين وُلِدوا من آدم وُلِدوا بجسد يحمل نتيجة الخطيئة الاصلية التي هي الموت .

ظهرت في الكنيسة المسيحية عقائد وتعاليم جديدة حول الحبل بوالدة الإله من أبويها يواكيم وحنّة، فمنها من يؤلِّه الحبل بها ومنها من ينكر حتىّ تكريمها، وفي كلتيهما أذىً على الإيمان المسيحي القويم .

ومنها عقيدة الحبل بلا دنس التي نادى بها البابا بيوس التاسع ونصَها الحرفي كما ورد في صفحة ٣٥٨ من كتاب السنكسار للمطران ميخائيل عساف –الجزء الأول– (الطبعة الثالثة ١٩٤٧) ما يلي :-

(في صباح اليوم الثامن من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٥٤ أعلن البابا بيوس التاسع بسلطانه الأعلى المعصوم عن الغلط "ان مريم البتول قد تنزهت عن الخطيئة الأصلية، وأن الله وَقى نفسها من تلك الخطيئة الجدية منذ الدقيقة الأولى التي فيها أبدعها وضمَّها إلى جسدها، وذلك منَّةً خاصة منه . بفضل استحقاقات ابنه الوحيد سيِّدنا يسوع المسيح مخلِّص الجنس البشري") .

أي إن الحبل بالمنعم عليها مريم العذراء ومنذ اللحظة الأولى للحبل بها بنعمة خاصة من الله القدير وبامتياز خاص من أجل استحقاقات مستقبلية ليسوع المسيح مخلِّص الجنس البشري حُفظت معفاة من الخطيئة الأصلية (الجدِّية)، وبكلمات أُخرى إن الحبل بوالدة الإله في لحظة الحمل بها حُفظت من الخطيئة الجدية الأصلية بنعمة الله ووُضِعت في حالة لا يمكنها معها أن ترتكب أي خطيئة شخصية . وهذه النعمة الخاصة التي جعلتها مفتداة قبل عملية الفداء أُعطيت لها توقعاً للاستحقاقات التي سيكتسبها ابنها .

وفقاً لهذه التعاليم تكون العذراء قد استلمت مقدماً الهدية التي أعطاها المسيح للناس بالآمه وموته على الصليب، كما تعني بأن عذابات والدة الإله التي قاستها وهي واقفة قرب صليب ابنها المحبوب والأحزان التي ملأت حياتها تعتبر إضافية لآلام المسيح لتؤكد "إن مريم تشترك مع مخلِّصنا في عملية الخلاص" ولذلك يعتبرونها مخلِّصتنا، وتكون مكانتها

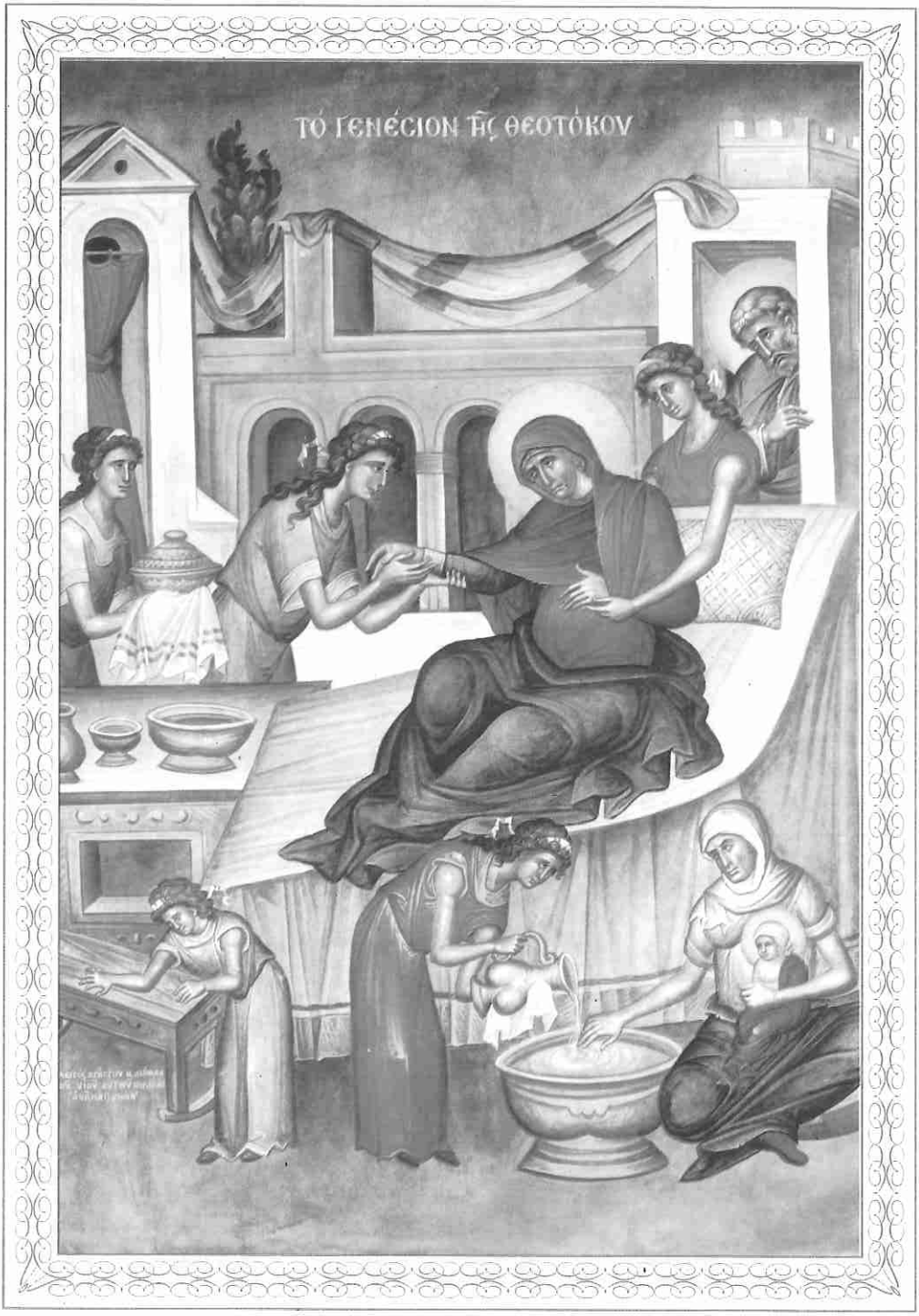
ΤΟ ΓΕΝΕΣΙΟΝ ΤΗΣ ΘΕΟΤΟΚΟΥ

في عملية الخلاص جنباً إلى جنب مع المسيح نفسه وتُمتدح كمساوية لله، وهذا الاتجاه لتأليه والدة الإله يقابله اتجاه آخر من فئات اخرى تُنكر تكريم والدة الإله كلياً وتُنكر طلب شفاعتها في الصلاة وفي كلا الحالتين أذى سواء في تمجيدها زيادة عن استحقاقها أو في الحطّ من قيمتها وكرامتها .

إن الكنيسة الأرثوذكسية تُعظّم والدة الإله وتمجّدها ولكنها لا تجروء على إضافة ما قالته الكنيسة المقدسة والتقليد الشريف، "منْ كل الذين وُلدوا من امرأة لا يُوجد ولا واحد كامل وتام القداسة سوى الرب يسوع المسيح، الذي بطريقة خاصة وُلد بلا دنس ولم يُلّوث بخبرة أرضية" الله وحده بدون خطيئة، الجميع وُلدوا بالطريقة المعتادة من امرأة ورجل أي من اتحاد جسدي، وأضحوا مجرمين بنتيجة الخطيئة الاصلية (الجدية)، وبالنتيجة يكون بلا خطيئة فقط الذي لا يُحمل به بهذه الطريقة، إنسان واحد فقط هو الوسيط بين الله والإنسان، حرّ من رباطات الميلاد الخاطىء، لانه وُلد من عذراء وبولادته لم يلمس خبرة الخطيئة .

يقول أحد الآباء: "أنا خائف أن أرى بعضكم يرغب في إجراء تغييرات في حالات مهّمة بإدخال أعياد غير معروفة في الكنيسة أو مصادق عليها أو غير مثبتة في التقاليد القديمة"، فهل نحن متعلّمين أكثر أو غيورين أكثر من آبائنا ؟! تقولون بأنه يجب علينا أن نمجّد ونعظّم والدة الإله بكل استطاعتنا، هذا صحيح ولكن تمجيد ملكة السماء يتطلب فطنة وحسن تمييز؛ لأن العذراء الملكة لا تحتاج إلى تمجيد زائف . إنها تملك التيجان الحقيقية للمجد وشارات الإجلال والكرامة .

يقولون بأنه يجب ان نكرّم الحبل الذي سبق الميلاد المجيد، لأنه لو لم يسبق الحبل لم يكن الميلاد مجيداً، لكن ماذا يمكن أن يقول إنسان لنفس

السبب بوجوب تقديم نفس الإكرام لوالد ووالدة القديسة مريم ؟ وبالتالي وجوب إكرام جدَيها وأجدادها الأوائل وإلى ما لا نهاية، وبالنتيجة كيف لا يمكن أن توجد خطيئة حيث الحبل بلا شهوة . القديسة مريم لم تتقدّس قبل حبلها ولا يمكن أن تكون قد تقدّست في لحظة الحبل بها بسبب الخطيئة الغير منفصلة عن الحبل، يبقى أن نصدّق بانها قد تقدّست بعد الحبل بها في رحم امّها وهذا التقديس يبطل الخطيئة ويجعل ميلادها مقدّساً وليس الحبل بها .

لم يُعط الحق لأي إنسان بالحبل بالقداسة باستثناء السيِّد المسيح الذي حُبل فيه بالروح القدس وهو الوحيد مقدّساً منذ الحبل به، وباستثنائه كل نسل آدم ينطبق عليه ما قاله النبي عن نفسه بشعور متواضع واعتراف بالحق "وبالخطيئة حبلت بي أمي" (مز ٥١:٥)، كيف يمكن لإنسان أن يدّعي بأن الحبل مقدّساً عندما لا يكون من عمل الروح القدس . إن العذراء القدّيسة ترفض أي تمجيد يمجِّد الخطيئة بوضوح، ولا تَقبل بأي حال من الأحوال تثبيت اختراع جديد رغماً عن تعاليم الكنيسة، إن تعليم الحبل بوالدة الإله من أبويها يواكيم وحنَة بلا دنس :

١ - يتنافى مع تعاليم الكتاب المقدَّس حيث يتكررّ به (بالمسيح) فقط ذكر العديم الخطيئة "وسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح" (١تيمو٢:٥) "وليسَ فيه خطية" (١يو٣:٥)، "الذي لم يفعل خطيَة ولا وُجد في فمه مكر" (١بط٢:٢٢) "مجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطيَّة" (عب٤:١٥) "جعل الذي لم يعرف خطيَة، خطيَّة لأجلنا لنصيرَ نحن برَّ الله فيه" (٢كو٥:٢١) .

٢ - تتنافى هذه التعاليم مع التقاليد المقدسة التي اشتملت

عليها كتابات العديد من الآباء، حيث ذكر امتداح قداسة العذراء مريم منذ مولدها وتطهيرها بواسطة الروح القدس عند حبلها بالمسيح، وليس بالحبل بها من حنَة "، لا يوجد إنسان غير ملوَث أمامك يا رب حتى لو كان عمره يوماً واحداً سواك أنت وحدك الرب يسوع المسيح إلهنا، الذي ظهرت على الأرض بدون خطيئة والذي نؤمن إننَا بواسطته نحصل على الرحمة وغفران الذنوب" (القدّيس باسيليوس الكبير في صلاة غروب حلول الروح القدس) ويقول القديس يوحنا الذهبي الفم "هي لم تكن في حالة لا تستطيع بها أن تخطىء ولكنها دأبت على الاهتمام بخلاصها وتغلّبت على جميع الإغراءات".

٣ - إنَّ التعليم بأن والدة الإله قد طُهِّرت قبل مولدها بحيث أنها تكون قادرة على ولادة المسيح الطاهر لا معنى له، لانه إذا المسيح الطاهر يمكن ان يُولد من عذراء تُولد طاهرة، فانه يكون بالضرورة إن والديها يجب أن يكونوا بريئين من الخطيئة الأصلية، ومولودين من أبوين طاهرين من الخطيئة الأصلية، وهكذا دواليك، وبالنتيجة لا يُمكن أن يتجسّد المسيح إلاَّ إذا كان من سلالة جسدية طاهرة من الخطيئة الأصلية منذ آدم، وحينئذ لا يُصبح هناك حاجة لتجسّد المسيح الذي جاء إلى الأرض ليُبطل الخطيئة .

٤ - التعليم بأن والدة الإله قد حُفظت من الخطيئة الأصلية يشابه التعليم بأن نعمة الله قد حفظتها من الخطيئة الشخصية، وهذا يجعل الله غير رحيم وغير عادل، لأنه إذا كان الله يحفظ

مريم من الخطيئة ويطهّرها قبل ميلادها، فلماذا لا يطهّر الناس قبل مولدهم ويتركهم بخطاياهم ؟ وهذا يؤدي بالتالي إلى أنّ الله يحفظ الناس رغماً عن إرادتهم بسبق تصميم على خلاص بعض الناس قبل مولدهم .

إذا كانت العذراء وهي في رحم امّها لا ترغب صالحاً او طالحاً قد حُفظت بنعمة الله من عدم الطهارة، ومن ثم بالنعمة من الخطيئة بعد مولدها، فما هو التكريم الذي تستحقه ؟

إذا كانت قد وُضِعَت في موضع لا تستطيع فيه أن تُخطىء ولم تُخطىء، فلماذا تُمجَّد ؟ إذا كانت بدون جهد وبدون أي نوع من دوافع الخطيئة بقيت طاهرة، فلماذا تُتَوج أكثر من غيرها ؟ (لا يوجد نصر بدون عدوَ)

إن قداسة مريم العذراء ظهرت في حقيقة أن كان لها عواطف إنسانية، أحبّت الله ونذرت نفسها له، وبطهارتها ارتفعت فوق الجنس البشري، ولهذا سبق معرفتها وسبق اختيارها وتأهّلت لتُطّهر من الروح القدس الذي حلَّ عليها لتحبل منه بمخلِّص العالم .

إن التعليم بالنعمة المعطاة لها بالحبل بها بلا دنس يُنكِر انتصارها على جميع الإغراءات، ومن النصر الذي يؤهّلها ان تُتوَّج بأكاليل المجد، وهذا التعليم ليس مديحاً للعذراء، ولا تعظيماً لها بل استخفافاً بها، وهي "أم الحقَ" (يو١٤:٦) ترفض هذا التعليم .

لقد عُظِّمت الكلية القداسة من الله نفسه، ومُجِّدت حياتها على الأرض وفي السماء، بحيث إن الإختراعات البشرية لا تستطيع أن تضيف شيئاً لإكرامها وتمجيدها .

وبحسب تعليم الكنيسة الأرثوذكسية، فقد وُلدت

العذراء الكلّية القداسة بالخطيئة الجدّية مثل جميع البشر، وكانت بحاجة إلى الخلاص "تُعَظِّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلّصي" (لو ١: ٤٦، ٤٧) . إنّ نقاوة وعدم دنس حياة العذراء مريم منذ مولدها ولغاية تبشيرها من رئيس الملائكة وتحرّرها من الخطيئة الشخصية كان ثمرة إتحاد عملها الروحي مع نفسها وغزارة النعمة الإلهية التي تدفقت عليها ومع إنها "وَجَدت نعمة لدى الله" (لو ١: ٣٠)، قال لها رئيس الملائكة عند تحيّتها، لأنك قد وجدت اي (أحرزتِ، نلتِ، حصلتِ).

لقد تجهّزت العذراء مريم الكلية القداسة كأصلح جزء من أبناء البشر، وكإناء مستحق لنزول الله الكلمة إلى الأرض أي مجيء الروح القدس، "الروح القدس يحلّ عليك" (لو ١: ٣٥) في هذه اللحظة فقط تقدّس بالكلّية بطن العذراء مريم لاقتبال الله الكلمة وتطهّرت من نتائج الخطيئة الجدّية .

ميلاد العذراء مريم ودخولها إلى الهيكل

"ميلادك يا والدة الإله بشّر المسكونة كلها بالفرح "

بعد تسعة أشهر من بشارة الملاك ليواكيم وحنّة وُلدت العذراء القديسة مريم في بيت يواكيم الكائن في القدس(١) قرب باب الضأن في اليوم الثامن من شهر أيلول، فقدّم يواكيم إلى الله قرابين وتقدمات عظيمة، ونال بركة رئيس الكهنة والكهنة والشعب، وفي اليوم الخامس عشر من ميلادها وحسب الشريعة اليهودية سُمّيت (مريم) وهو الاسم الذي عيّنه ملاك الرب ويعني (سيّدة) وقد أصبحت بالفعل سيّدة العالم لأنها أُعطيت أن تكون أم الخالق . "اليوم من جذر يسّى ومن صلب داود تُولد لنا فتاة الله . فالخليقة كلّها تبتهج متجدّدة ومتألّهة بها . والسماء والأرض تفرحان معاً . فيا قبائل الأمم سبّحوها . فإن يواكيم يُسرّ وحنّة تُعيّد صارخة . إن العاقر تَلِد والدة الإله مغذية نفوسنا" (قنداق عيد ميلاد والدة الإله / اللحن الرابع) .

كانت الطفلة مريم تنمو وتتقوّى مظلّلة بنعمة الله وعناية أبويها، وجاء في التقليد أنه عند اكتمال تسعة أشهر لميلادها أوقفتها أمها على الأرض لتجرّب ما اذا كانت تستطيع أن تقف وحدها، فخطت مريم سبع خطوات وعادت إلى معانقة أُمّها فحملتها وقالت: "لَعمر إلهي لا تمشين على هذه الأرض ثانية حتى أُدخلكِ إلى هيكل الرب" . ومنذ ذلك الحين هيأت

---

١ – جاء في بعض الكتب انها وُلدت في الناصرة، امّا ولادتها في القدس فثبتَه القدّيس صفرونيوس ومن بعده القدّيس يوحنا الدمشقي إذ جاء في موعظته عن ميلاد والدة الإله "لقد وُلدت والدة الإله قرب باب الضأن. إطرب يا باب الضأن الهيكل المقدس لوالدة الإله، إطرب يا باب الضأن حائط غنم يواكيم"

حنَة غرفة نوم ابنتها في مكـــان خاص، ومنعت إدخـال كل ما هو غـير طاهر إليه، واصْطَفَت بناتاً عذارى يهوديّات ليلاطفن الطفلة المباركة، فكنَّ يحملنها هنا وهناك . لما انقضت سنة على ميلادها دعـا يواكيـم الكهنـة والكتبة والشيوخ الى وليمة أقامها بهذه المناسبَة، وخلال الاحتفال أحضـر يواكيم ابنته مريم أمام الحاضرين فباركوها قائلين :-

" يا إله آبائنا، بارِك هذه الطفلة وهبها اسماً مجيـداً خـالداً " فاجـاب الحضور، آمين.

ولما بلغ عمر مريم سنتين عمد يواكيم إلى إيفاء نذره بتكريس ابنته للهيكل، فسألته حنَة إلى سنة أخرى . فاستجاب يواكيم إلى طلـب حنَـة، ولما بلغت مريم الثالثة من عمرها أراد أبويها إيفاء نذرهما، فاجتمع كثـير من أنسبائهما وأقاربهما وكثير من الفتيات العذارى صديقاتها ليُصاحبنـها إلى الهيكل، وكُن يُرنمن مزامير داود والشموع فـي أيديـهنَ مشـتعلة . وصعد يواكيم وحنَة إلى الهيكل واقتربا منه وهما يحملانها على أيديـهما، وصفَ العذارى يتقدْمنها والشموع مُشتعلة فـي أيديـهنَ للإشـتراك فـي الاحتفال بتكريس العذراء مريم لهيكل الرب، وخرج الكهنة مـن الـهيكل واستقبلوا بالأناشيد الطفلة الإلهية المهيأة لأن تكـون أمَ رئيـس الكهنـة الأعظم الآتي من السماوات.

عندما وصل الموكب إلى الهيكل خلعوا عن مريـم لبـاس السـفر وألبسوها ثياباً أنيقة تليق بملكة، وأوقفوها على واحـدة مـن الدرجـات الخمسة عشر في الهيكل التي كانت توصل من مجلس النساء إلى مجلـس

الرجال، وهي دلالة على الخمسة عشر مزموراً التي كان كل مزمور منها يُتلى على درجة من الدرجات (مز ١١٩ - ١٣٣) فصعدت الدرجات واحدة بعد الأخرى بدون مساعدة أحد، فاستقبلها رئيس الكهنة زكريّا على الدرجة العليا والكهنة مُحدقون به، وأخذها تواً وأدخلها قدس الأقداس، إذ لم يكن مسموحاً بدخوله لا للنساء ولا للكهنة ولا حتى لرئيس الكهنة الاّ مرة واحدة في السنة، وذلك بعد صوم طويل وصلاة يوم التطهير ومعه الدم المضحّى به عن نفسه وعن خطايا الشعب، وسمح رئيس الكهنة لها بالهام إلهي بأن تدخل الهيكل للصلاة في أي وقت شاءت. "تحتفل الكنيسة بدخولها الى الهيكل في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني من كل عام " .

عاد أبوا الدائمة البتولية إلى بيتهما بعد أن قدّما لله ابنتهما مع الهبات والأضاحي ونالا بركة رئيس الكهنة . وبقيا يزورانها مدة سبع سنوات حتى انتقلا إلى الأخدار السماوية فبقيت مريم يتيمة، إذ انتقل يواكيم عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وحنّة عن عمر يناهز تسعة وسبعون عاماً، هذا وتحتفل الكنيسة برقاد القديسة حنّة في ٢٥ تموز من كل عام، ويُعيّد لوالدَيّ العذراء جدّى المسيح الإله يواكيم وحنّة في ٩ ايلول من كل عام .

إن لقدس الأقداس مكانة هامة في الهيكل، فهو مكان أمر الله بإقامته ليتصل منه مع الناس بواسطة رئيس الكهنة، وبما أن الله كان ينوي أن يتنازل ويصبح هو نفسه إنساناً، يسوع المسيح كاهن العلي العظيم والوسيط بين الله والناس، وكما أن قدس الأقداس مملوء بمجد الرب بحضوره فيه، هكذا سيمتلىء بطن العذراء الكلية القداسة من مجد الله بحضوره فيه .

امتازت حياة العذراء في الهيكل بالقداسة، إذ قضت معظم أوقاتها في الصلاة في قدس الأقداس لدرجة يستطيع المرء معها أن يقول إنها عاشت فيه، لقد رغبت في تنفيذ وصايا الله "أن تكون قدّيساً، لأني أنا الرب إلهك قدّوس" (لا١٩: ٢) .

تقول المصادر الأبوكريفية إنها كانت دائمة الصلاة، وكان مظهرها جميلاً وممجّداً، وكان من الصعب على الإنسان أن ينظر إلى وجهها . كانت مريم تشغل نفسها في غير أوقات الصلاة بتلاوة الكتاب المقدس وغزل الصوف، الذي كانت تجيده بمهارة امرأة عجوز، وتقول هذه المصادر بأنها كانت تصلّى باتّباع النظام المرسوم في الساعات فكانت تنهض مع انبثاق الفجر وتصلّى حتى الساعة الثالثة (الساعة التاسعة صباحاً) ونصف النهار أي في الساعة السادسة (الساعة الثانية عشر ظهراً)، وبعد نصف النهار في الساعة التاسعة (الساعة الثالثة بعد الظهر) ولم تكن تكفّ عن الصلاة حتى ظهور ملاك الرب ومعه غذاء سماوي لها تأخذه من يده، أمّا الطعام الذي تأخذه من الكهنة فكانت توزعه على الفقراء . وقال القديس غريغوريوس النيقوميدي في ذلك : "إن جهاداتها في الأتعاب والصلوات كانت تتقوّى بمقدار نموّ جسدها واشتداد روحها . وإن ظهور الملائكة لها قد توالى . وإن رئيس الكهنة زكريّا رأى الملاك يخاطبها في قدس الأقداس ويُقدّم لها طعاماً" وزاد عليه إيرونيموس المغبوط قائلاً: "إن الملائكة كانوا يزورونها كل يوم، ولو سألني أحد : كيف قضت العذراء الفائقة النقاء زمان صباها ؟ لأجبته : لا يعلم هذا الاّ الله ورئيس الملائكة جبرائيل حارسها الملازم لها والملائكة الآخرون الذين كانوا يأتون إليها فيحادثونها. وهكذا اصبحت أكثر وأكثر كمالاً في عمل الله، بعيداً عن اضطرابات الحياة

اليومية . كانت تعيش حياة التأمل ومطالعة الكتاب المقدّس نهاراً وليلاً، ولم يكن أحد أكثر منها تواضعاً وكمالاً في الفضيلة . لم تقل أي كلمة سوء أبداً، ولم تسمح بأي فكرة غير نقية تدخل إليها، لم يرَ أحد أنها غضبت، وكل كلامها كان مملوء نعمة، كانت حياة مريم نموذجاً للحياة الهادئة والصلاة الدائمة، ويقول القدّيس غريغوريوس بالاماس : "إن العذراء هي أوّل من أخذ على عاتقه الصلاة المستمرة الدائمة، وهناك في قدس الأقداس وبالصلاة القلبية، صَعدت إلى أعلى درجات التأمل، مُعتزلة العالم لمصلحة العالم، بالهدوء المقدّس ويقظة القلب، فأصبحت مثالاً لنسّاك المستقبل لإبنها وإلهها" .

أيقونة دخول السيّدة إلى الهيكل وتفسيرها من طروباريات العيد التالية :-

تهلّلا الآن مسرورَيْن يا يواكيم وحنّة بتقديمكما للربّ في الهيكل الفتاة النقيّة المولودة لكما . المزمعة ان تكون أمّا للمسيح الإله ملك الكل. تقديم مهاة ثلاثية السنين.

تقدّمن يا عذارى حاملات المصابيح بأيديكنّ . وانشدنَ الترانيم في امتداح وفادة العذراء النقيّة . فيما هي ذاهبة إلى هيكل الرب مشتركات معنا في العيد .

بما أنكِ مقدّسة يا عروسة الله السيّدة البريئة من كل العيوب . أُتي بكِ بعد ولادتكِ إلى هيكل الرب لتتربّي في قدس الأقداس . حينئذ أُرسل إليك جبرائيل يأتيكِ بالطعام . فدُهشت السماويات كلّها منذهلة عند معاينتها الروح القدس قد حلّ فيكِ . ومن ثم نبتهل إليكِ يا أم الله البريئة من العيب والدنس . الممجّدة في السماء وعلى الأرض طالبين أن تخلّصي جنسنا .

خطوبة العذراء الكلّية الطهارة

إن النقاء العذري لم يكن يُحسب فضيلة عند العبرانيين، فجميع العذارى المتربّيات في الهيكل كُنّ يُلزمن بالزواج بعد بلوغهنّ ولا سيما فرع بيت الملك داود، الذي كان مجبراً أن يتزوج على رجاء أن يأتي ماسيّا (المسيح) من نسله . ولما بلغت العذراء مريم السنة الثانية عشر من عمرها أخبرها رئيس الكهنة بأنه لا يجوز بحسب العادة إبقاء امرأة في مثل هذا العمر لتخدم في الهيكل، وإن عليها أن ترحل إلى بيتها لتتزوّج أسوة بغيرها من العذارى في الهيكل، اللواتي أظهرن الطاعة لأمر الكاهن الأكبر . أمّا مريم فقد أجابته بتواضع ورباطة جأش بأنها لا تستطيع الامتثال للأمر لأن أبويها قد نذراها لله، وهي بعد في مهدها، وإنها هي نفسها نذرت أن تصون له بتوليتها، وإنها لا يمكن أن تتّحد بانسان مائت وهي نذيرة لله الخالد ولا تريد أن تنقض نذرها. فبهت رئيس الكهنة واضطرب الكهنة لعدم قدرتهم على إبطال الشريعة وحرمة النذر، ولعجزهم على إجبار العذراء على نقض نذرها الذي هو الأول من نوعه في العالم أجمع؛ إجتمعوا في الهيكل وصلّوا بحرارة ليبيّن الله لهم مشيئته وطريقة التصرّف في هذه الحال، لانهم كانوا يعلمون أن إجبارهم على تزويج عذراء نذرت بتوليتها لله خطيئة عظيمة، وكذلك إبقاء إمرأة بالغة في قدس الأقداس خطيئة لا تقل عن سابقتها، وبينما كان الجميع منهمكين في الصلاة دخل رئيس الكهنة إلى المكان المقدّس لابساً صدارة الكاهن الأكبر للقضاء، التي كان يلبسها لتنفيذ إرادة الله (خر٢٨:١٥-٢٩) وعندما قدَّم

صلاته بخصوص مريم ظهر له ملاك الرب وقال له "يا زكريّا إجْمَع كلّ الرجال الشيوخ الذين فقدوا نساءَهم في شعبك وليُحضِر كلّ رجل عصاه معه، فالذي يُظهر له الرب آية سلّمه العذراء ليصون بتوليتها" .

أُلقيت قرعة بواسطة الكهنة على الإثني عشر قبيلة فوقعت القرعة على قبيلة يهوذا، ثم أعلن الكاهن بأن على جميع الرجال الأرامل من بيت يهوذا أن يأتوا وكل واحد يُحضر معه عصاه بيده، وعندما اجتمعوا اختار رئيس الكهنة زكريّا منهم إثني عشر رجلاً من الأتقياء الطاعنين في السن ولا نساء لهم، ووضع عصيّهم على المذبح ليلاً مُصلّياً على مسمع الجمهور وقائلاً "أظهر أيّها الرب الإله الرجل المستحق لأن يخطب العذراء" وتُركت العصي الليل كلّه على المذبح، وفي الصباح دخل رئيس الكهنة والكهنة والإثني عشر رجلاً الى الهيكل، فرأوا أن عصا يوسف قد أزهرت وأن حمامة طارت من العلى ووقفت عليها . فتحقّقوا حينئذ أن مشيئة الله إنما هي في أن يُعهد بالعذراء مريم إلى يوسف ليحفظها أبداً عذراء .

كان يوسف نسيب العذراء مريم يعمل نجاراً، وكان ذا سيرة بارة ينتظر بفارغ الصبر مجيء ماسيّا (المسيح) وقد بلغ من العُمر في ذلك الوقت ثمانون سنة، وعاش كأرمل زمناً طويلاً بعد وفاة امرأته (صالومي) التي رُزق منها بسبعة اولاد، أربعة أبناء وهم يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا، وثلاث بنات، استير، ثامار وصالومي امرأة زبدي، وهؤلاء كانوا يُدعون اخوة يسوع واخواته (مت١٣:٥٦، مر٦:٣).

طلب رئيس الكهنة من يوسف أن يقبل عنده عذراء الرب للمحافظة عليها فأجابه قائلاً "إنه رجل كهل وعنده أولاد بالغون وإن مريم فتاة صغيرة وإنه بقبوله لها يكون سخرية في اسرائيل" فذكّره رئيس الكهنة بما حلّ بقورح وداثان وأبيرام الذين بسبب معارضتهم لله انشقّت الأرض

من تحتهم وفتحت فاها وابتلعتهم وبيوتهم، وقال له : "خف أنت أيضاً لئلاَ يصيب بيتك هكذا" (عدد١٦: ٢٣-٣١) حينئذ خضع يوسف لمشيئة الله وخُطبت له العذراء مريم أي عُهد إليه بها لا للزواج ولكن لصيانة بتوليتها وخدمة السر المكتوم منذ الأزل، ومضى يوسف مع مريم بعد الخطوبة إلى مدينته الناصرة .

عاشت مريم في بيت خطيبها الصدِّيق كما عاشت في قدس الأقداس، في الصلوات والتأملات ومطالعة الكتب المقدّسة والاشغال اليدوية، والاهتمامات البيتية فكان لها ذلك البيت هيكلاً لم تكن تغادره أبداً الاَ للخدمات الإلهية برفقة أقاربها دائماً .

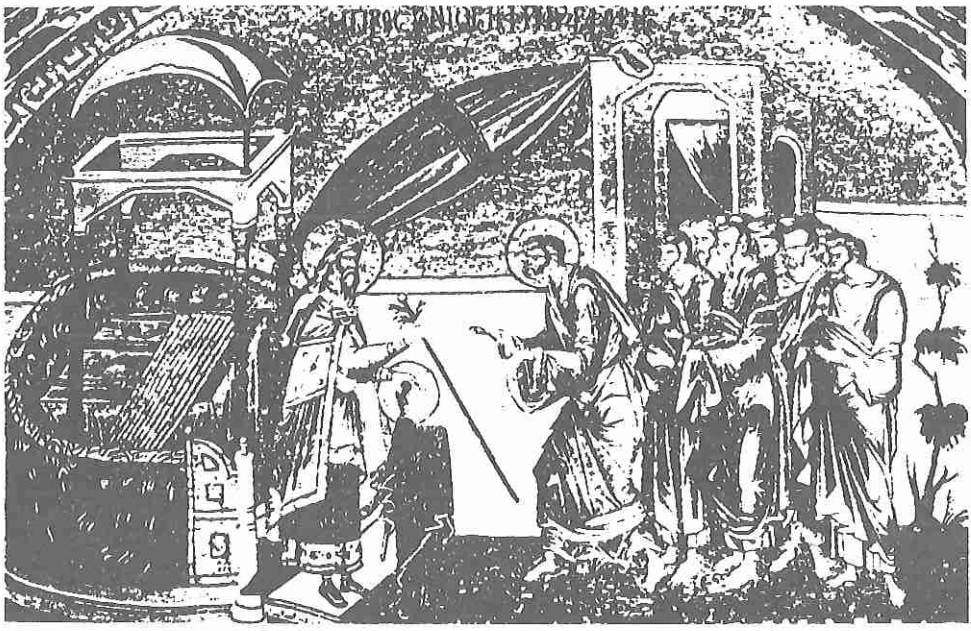

نموذج حياة العذراء

يصف القدّيس أمبروسيوس حياة العذراء في بيت يوسف الشيخ خطيبها فيقول: "حملت العذراء جسداً بدون اتصال مع جسد آخر، لم تكن عذراء بالجسد فقط بل بالعقل الذي لم يُلوّث بأي ميل إلى الشهوة أيضاً. كانت متواضعة في قلبها، جريئة في كلامها، حكيمة في فكرها، قليلة الكلام ومولعة بالقراءة.

لم تضع أملها في الغِنى بل بطلبات الفقير، منكبّة على العمل ومتواضعة في الحديث. التمست الله حاكم أفكارها وليس الإنسان (١ كو ٤:٤)، لم تؤذِ أحداً بل كانت مُحبّة للجميع، لم تقف أمام الكبار ولم تحسد المساويات لها، تجنّبت التباهي واحبّت الفضائل، لم تخرج من فمها كلمة ليست بالنعمة، لم تخالف جاراتها ولم تحتقر الأقل منها، لم تجتنب الذين هم في حاجة، لم تحتقر فقيراً، لم تستهزء بأحد، وكانت تُغطّي على كل ما تراه وتسمع به، بمحبّتها. لم يكن شيء كئيب في عينيها، ولا شيء وقح في كلامها ولا شيء غير محتشم في أعمالها، لم تعمل أي حركة بغباء ولم تخطو أية خطوة غير محسوبة. لم يكن في صوتها أي فظاظة. وببساطة كان مظهرها الخارجي انعكاساً لكمالها الداخلي في طيبتها واعتدالها.

لم يكن في حياتها أيام تراخٍ وكسل، بل أيام صيام وصلاة، إذا أرادت أن تأكل كانت تأكل أي طعام يقع تحت يدها، لم تلجأ إلى الراحة حتى لا تتلف حياتها، كانت دائماً الحاجة فقط هي التي تجعلها تنام،

بجسمها في حين كانت روحها يقظة دائماً، وفي نومها كانت تجول فيما كانت تقرأ من الكتب المقدّسة، لم تكن معتادة الخروج من البيت الاَ للخدمات الإلهية برفقة أقاربها، كانت تشتغل في بيتها . ومعها أشخاص آخرون لحماية جسدها ولكنها وحدها كانت حارسة لأفكارها وأخلاقها، كانت تفرض الاحترام في مشيها وكلامها، كانت تتقدّم خطوة فخطوة في الفضيلة، كانت تمتلك كل الفضائل وكل ما كانت تعمله كان درساً قائماً بنفسه، أوفت بكل التزاماتها من الفضائل كأنها تَتعلَّم وليس كأنها تُعلِّم، وعندما دخل عليها رئيس الملائكة جبرائيل وجدها في عزلة خاصة في بيتها بدون رفاق، لم ترد أن يزعجها أحد، ولم ترغب في رفقة أحد، لأن رفاقها كانت أفكارها وأكثر من هذا كانت تظهر لنفسها أنَّها أقل وحدة عندما تكون وحيدة، إذ كيف يمكن أن تكون وحيدة من لها هذا الكمّ من الكتابات، هذا الكمّ من رؤساء الملائكة والملائكة والأنبياء ؟".

يقول القدّيس أثناسيوس (٢٩٦م – ٣٧٣م) "إن مريم كانت عذراء تقيّة لم تترك بيتها، ولم تتعوّد الذهاب إلى الأماكن العامة، كانت تعيش داخل بيتها كنحلة العسل، كانت تُعطي بكرم وتُوزِّع ما عندها للفقراء، لم يعلو صوتها وكانت يقظة في قلبها، لم تقل أي كلمة على أحد، ولم تكن تحب سماع أي كلمة سوء على أحد، كانت حياتها مثالاً للجميع ".

كتب القدّيس غريغوريوس بالاماس :"الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الله أن يفعله هو أن يتّحد بنفسه بشيء غير طاهر ونقي، قبل ان يطهِّره مُقدَّماً قبل الاتحاد به، وهكذا كان من الضروري أن تكون عذراء خالية من أية شائبة وكلّية النقاوة، من يستطيع أن يحمل ويحتمله هو الذي يحب ويهب الطهارة".

لنستمع إلى هذا المديح الذي يقوله القدّيس يوحنا كروتستاد

ΘΕΥΑΓΓΕ
ΛΙCΜ

(١٨٢٩-١٩٠٨) الذي يكتب عن العذراء ما يلي :"الـــذي زيَـــن الســـماء بالنجوم، ألا يستطيع أن يزيّن بجمال أكبر سماءها الفكرية، أمَه العـــذراء الأطهر بين الخليقة . والذي زيَن الأرض بمختلف أنواع وألوان الأزهـــار ووضع فيها عبيرها الجميل، ألا يستطيع أن يزيَـــن أمَـــه الأرضيـــة بكـــل الفضائل وجعل عبيرها روائح روحية ؟ حقاً، يقدر . لقد اصبحت ســـيَدة السماء وهيكل الله مزيّنة بكل الفضائل ولها شذى أطيب من جميع طيـــوب الأرض" .

وكتب في مكـــان آخر، الزينة المتألقة، مـــا هـــي طـــهارة وكمال قصد القادر على كل شيء أن تكون عليه هذه الروح الأكثر قداســـة والأطهر جسداً، أمَ الله، الذي تكوَن في رحمـــها الله الكلمـــة - الـــروح والجسد - أتى ليسكن فيه، تخيّل ما هو الاحترام الذي تســـتحقه ؟ كيـــف يمكن أن نمجدَها ؟

بشارة سيِّدتنا والدة الإله

إن الحدث الذي سنقرأ عنه هنا من أهم الأحداث في تاريخ البشريّة ألا وهو تجسّد ابن الله الأزلي، في يوم البشارة دخل كلمة الله البشريّة بشكل لم يسبق له مثيل، الآب أرسل الإبن، والإبن تجسّد بقوة الروح القدس، "اليوم رأس خلاصنا . وإعلان السرّ الذي منذ الدهور . فانّ ابن الله يصير ابن العذراء وجبرائيل يبشّر بالنعمة . فلنهتفنّ نحن أيضاً معه نحو والدة الإله قائلين : السلام عليكِ يا ممتلئة نعمة . الربُّ معك ."

يقول القدّيس (إيرينيوس ١٩٣م) "كما خُلق آدم بكلمة الله من أرض عذراء لم تعمل بها يد، هكذا خلق كلمة الله جسداً لنفسه من رحم عذراء عندما أصبح ابن الله آدم الجديد ليصحّح سقطة آدم الأول في الخطيئة .

القدّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٨م - ٣٨٦م) يقول :"بحوّاء وهي عذراء دخل الموت، وأصبح من الواجب أنه من عذراء يجب أن تظهر الحياة، وكما خدعت الحيَّة الواحدة، هكذا جبرائيل يجب أن يحضر البشارة السعيدة إلى الأخرى .

القدّيس يوحنا الذهبي الفم (٣٥٤م - ٤٠٧م) يضع حواء - مريم بقوى متوازية عندما يكتب أن المسيح قد انتصر بنفس الأسلحة التي استعملها الشيطان وهي : عذراء، الخشبة، والموت وهي رموز انهزامنا. العذراء كانت حوّاء قبل أن تعرف رجلها، الخشبة كانت الشجرة .... ولاحظ، مرة ثانية، عذراء، الخشبة، والموت، رموز هزيمتنا قد أصبحت رموز الانتصار، إذ أن مريم في مكان حوّاء، طاعة مريم أصلحت

عدم طاعة حوّاء بإطاعتها لخطّة الله، ومن خلالها تباركت جميع النساء، وعَم الفرح جميع المخلوقات .

كانت مريم تعيش في بيت خطيبها يوسف في الناصرة على منوال العيشة التي تعوّدتها في قدس الأقداس، عاشت في الوحدة والهدوء والصلاة ومطالعة الكتب المقدّسة (والأشغال اليدوية والاهتمامات البيتية التي تستغرق القليل من حياتها المتواضعة) فكان لها بيت يوسف هيكلاً للصلاة، كانت تشتغل بحَبْك الصوف والكتّان وتوشية الحلل الكهنوتية، وقد بدأت بغزل الإرجوان الحقيقي لحجاب هيكل الرب ويوسف مشغول في عمله وقد "جاء ملء الزمان" (غلا ٤:٤) واقتربت أيّام خلاص البشر بواسطة التجسُّد الإلهي الذي انتظرته البشرية أكثر من خمسة ألاف سنة، نظَر الله من علوّ مجد ملكه إلى تواضع أمَتهِ فاختارها أمّاً للكلمة الأزلي، وبينما كانت مشغولة في تلاوة الكتاب المقدس وتتأمل في نبوّة إشعيا النبي "ها العذراء تحبل" (إش٧:١٤) وقد بلغت الساعة العظيمة، ساعة التجسد الإلهي، الساعة التي وجب أن يبتدىء فيها عمل خلاصنا "وفي الشهر السادس(١) أُرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرَجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال : "سلامٌ لكِ أيّها المنعم عليها. الرب معكِ . مباركة انتِ في النساء . فلمّا رأته اضطربت من كلامه، وفكّرت ما عسى أن تكون هذه التحيّة " (لو١:٢٦-٣٧) .

لمّا سمعت العذراء الفائقة الطهارة هذا السلام الملائكي اضطربت من كلماته وفكّرت في ذاتها "ما عسى أن يكون هذا السلام" لقد اضطربت

---

١ - الشهر السادس : إن هذا الشهر كان السادس من الحبل بيوحنا السابق، وكان ذلك الملاك هو نفسه الذي بشّر زكريّا واليصابات بالحبل به، وقد أُرسل ليبشّر العذراء الفائقة الطهارة الحبل بالمسيح .

ولكنها لم تخف لأنها عرفته، هنالك فرق بين ظهور رئيس الملائكة جبرائيل إلى الكاهن زكريّا وللعذراء مريم، عرَّف الملاك نفسه لزكريّا "وقال أنا جبرائيل الواقف قدام الله" (لو ١: ١٩) ولكنه لم يعّرف نفسه للعذراء ممَّا يدل إنها كانت تعرفه ، ولأن الملائكة كانوا يظهرون لها قبلاً، أيّام إقامتها في قدس الأقداس إذ كانت تتناول طعامها كل يوم من أيدي الملائكة حسب قول القدّيس جرمانوس، اضطربت ودُهشت لان الملاك جاءها محاطاً بمجد سماوي عظيم جداً وبمُحيّا مبتهج وكلمات مفرحة، لم يكن يجيئها من قبل على هذه الحال، اضطربت من السلام الجديد ومن تسميته لها امرأة، إذ قال لها "مباركة أنتِ بين النساء" اضطربت لأنها كانت عفيفة وفكّرت فيما عسى أن يكون هذا السلام، وفي ماذا يريد الملاك ان يقول لها أيضاً ؟

لقد أعلن الرب مراراً عديدة مشيئته لمختاري العهد القديم بواسطة ملائكته، إلاّ إن السلام لم يُسمع في الظهورات القديمة، فصَمتت العذراء مريم متحيِّرة وخافت التجربة من الحيّة الشريرة، ونظر المبشِّر السماوي بورع إلى اضطراب الفائقة القداسة فبادر إلى تسكينها قائلاً : "لا تخافي يا مريم لأنك وجدت نعمة عند الله . وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابناً وتسمّينه يسوع . هذا يكون عظيماً وابن العلّي يُدعى" إنّك تسمّينه يسوع الذي يعني المخلِّص لأنه يخلِّص العالم كلّه ويكون عظيماً وابن العَليّ يُدعى لانه يملك بمجد عظيم لا يماثله مجد داود ولا مجد جميع الملوك الذين كانوا قبلاً، ولا تكون مملكته وقتية بل أبديّة لا انتهاء لها .

ان حوّاء المرأة المخلوقة اولاً لم تضطرب لكلام الحيَّة الممنِّية إيّاها بشرف كينونتها عارفة لكل شيء ومساوية لله . فأصغت إلى كذب مواعيد الحيّة وذاقت من الثمرة المحرَّمة التي فيها خطيئة البشرية وموتها، ولكن المرأة التي حُدِّد نسلها منذ ابتداء العالم أن "يسحق رأس الحية" أي

إبليس واجهت المبشَّر بعظمة الطهارة العذرية وبعدم سبرها لغور السر فأمعنت النظر في كل كلمة من كلماته وقالت له : "كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟" أي إني غير مشتركة في زواج، وإنّي وإن كان لي رجل بموجب نظام الخطبة فلا رجل لي بسبب نذر البتولية، إنّ سؤالها هذا لا يعني أنها لم تصدِّق كلام الملاك، بل لأنها عرفت أنها منتدبة لتلد ابن الله ولكن لم تكن تعرف ولا تفهم بأية طريقة يمكنها أن تلد وهي عذراء ولم يمسسها بشر . ولذلك سألت "كيف يكون هذا ؟ فاجابها الملاك كاشفاً لها عن أنّ حبلها بالطفل لا يتمّ بالطبيعة البشريّة ونظامها، بل بما هو أسمى من هذه الطبيعة لأنه حيث يشاء الله يُغلب نظام الطبيعة. وعن إن هذا الحبل سيتمّ بفعل الروح القدس . وقال لها، "الروح القدس يحلّ عليك وقوة العلّي تظللك فلذلك أيضاً القدّوس المولود منك يُدعى ابن الله" (لو ١: ٣٥) فمنه تقبلين في حشاك وهو يتمّم فيكِ الحبل ويُصيرك أمّاً بما لا يُدركه العقل البشري المحدود . ولا غرو في ذلك الذي استطاع أن يكوّن آدم الحيّ من التراب الميّت، أفلا يقدر أن يُخرج من العذراء الحيّة طفلاً حيّاً ؟ وإذا كان قد أخرج من عَظْم آدم امراة، أفلا يستطيع أن يكوّن إنساناً في الحشا البتولي؟ إنّ الروح القدس الكليّ القدرة يعمل فيك ما يكوّن في جوفك الفائق الطهارة ومن جسدك بلا زرع بشريّ جسداً لله الكلمة الذي لا جسد له . ويُطهّرك أيتها الباب المغلق والمحروس بعذريتك يجتاز الرب مقدّساً ومنيراً إياك بالمجد الإلهي كما يجتاز شعاع الشمس بالزجاج، وأنت ستكونين أمّ الله حقيقة لانك تلدين إلهاً تاماً وإنساناً تاماً وتظلّين في الولادة وبعدها العذراء الخالدة كما كنتِ قبلها وقوّة العلّي هي التي تتمّم فيك هذه المعجزة بحلول الروح القدس عليكِ (ولذلك يُدعى المولود منك القدّوس بابن الله وتسمّينه يسوع) لانه سوف لا يكون شبيهاً

بالناس العاديين "الذين بالإثم صُوِّروا وبالخطيئة حبلت بهم امّهاتهم" (مز ٥١: ٥) بل سيكون نقياً غير مُشارك بالخطيئة ويُدعى (بابن العلي) . ولكي يثبِّت رئيس الملائكة جبرائيل للعذراء بشارته، دلّها على مثال نسيبتها اليصابات قائلاً لها آية صادقة برهاناً على حقيقة كلامه وهي "هوذا أليصابات نسيبتك هي أيضا حُبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوَّة عاقراً، لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله" (لو ١: ٣٦، ٣٧)، فسُرّت مريم بحقيقة البشارة وأذعنت لمشيئة الله وأجابت المبشِّر السماوي بتواضع عميق جداً وهي منفعلة بأعظم الورع نحو خالقها "هوذا أنا أمةٌ الرب . ليكن لي كقولك" (لو ١: ٣٨) وفي الحال تمَّ الحمل السرّي في حشاها المقدّس، ونزل ابن الله إلى الأرض متأنساً في حشا البتول "والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا" (يو ١: ١٤) .

كان لزاماً أن يحضر ملاكاً في بشارة والدة الإله للأسباب التالية :-

أولاً : ليهيئها ويسبق تطهيرها من الخطيئة الجدّية، بما انها مولودة من رجل وامرأة .

ثانياً : ليشتهر تواضع البتول وطاعتها وفضائلها التي من جرائها سبق انتخابها .

ثالثاً : ليُعرف ان الذي حبلت به هو إله حقيقي يستعمل الملائكة لخدمته .

بعد قبول القدّيسة البتول للحبل الإلهي، حلَّ عليها الروح القدس مطهِّراً إيّاها من الخطيئة الجدّية، ومانحاً لها قوة قبول لاهوت الكلمة وقوة الولادة معاً، حينئذ ظلّلت عليها حكمة الله تعالى بمنزلة زرع إلهيّ ومن دمائها المقدّسة الجزيلة الطهارة عقد لذاته جسداً مالكا نفس ذات عقل

ونطق . ليس بحال التناسل بل بحال الإبداع الكائن بالروح القدس . لذلك لا نقول إنساناً متألهاً بل نقول إلهاً متأنساً . وبهذا الجسد إتّحد باقنومه من غير اختلاط ولا تغيُّر ولا افتراق، ولم يحوِّل طبيعة لاهوته إلى جوهر الجسد، ولا جوهر الجسد الى اللاهوت ولا صنع جوهراً واحداً مركبًا من طبيعته الإلهية ومن الطبيعة البشرية التي اتخذها، بل حيث أنه إلهاً تاماً اصبح انساناً تاماً أيضاً .

وهكذا تمَّ سرّ تجسّد ابن الله وأصبحت مريم أمّاً واستمرت هذه الأم عذراء ووسعت في أحشائها الذي لا يسعه مكان، وبإلهام الروح القدس عزمت على زيارة أليصابات لتُشاطرها الفرح المتبادل فانضمت إلى أنسباء يوسف الذاهبين إلى المدينة المقدّسة ليسجدوا لله الحق في الهيكل، وعندما وصلت "إلى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريّا، سلَّمت على أليصابات، فلمّا سمعت أليصابات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها . وامتلأت اليصابات من الروح القدس . وصرخت بصوت عظيم وقالت مباركة أنتِ في النساء ومباركة هي ثمرة بطنكِ . من أين لي هذا أن تأتي أمُّ ربّي إليّ .... فطُوبي للتي آمنت أن يتمّ ما قيل لها من قبل الرّب" (لو ١: ٣٩-٤٥) . لم تكن مريم من تواضعها تتوقّع هذه الكلمات النبويّة ولكنها عرفت أن في هذا السلام إعادة بشارة رئيس الملائكة لها، وإن هذا كله تحقّق بإلهام الروح القدس فافعم قلبها بعواطف حمدٍ عميقة لعظمة العلّي، وفاضت بترنيمة إلهامية نبويّة "فقالت تُعظِّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلِّصي، لأنه نظر إلى أتضاع أمته، فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني . لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدّوس . ورحمته إلى جيل الأجيال للذّين يتقّونه . صنع قوّة بذراعه . شتّت المستكبرين بفكر قلوبهم . أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع

المتضعين . أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين . عضد إسرائيل فتاه ليذكر رحمة . كما كلّم آباءنا. لإبراهيم ونسله إلى الأبد" (لو ١:٤٦-٥٥) .

بهذه الكلمات الغير اعتيادية أجابت مريم الفائقة القداسة على سلام أليصابات النبويَ ناسبة العظمة كلّها إلى الرب القدير، أمّا من جهة ذاتها فقد عرفت إنها ليست إلاّ أداة لظهور مجده واعترفت بأن العلّي نظر إلى تواضع أمته ورأت نفسها بإلهام من العليّ موضوع احترام فائق "هوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوّبني" لأنها مصطفاة منذ الأزل أُمّا للإله الابن "لانه صنع بي عظائم واسمه قدّوس" وبمعرفتها نزلت رحمة الله عليها واعترفت بان هذه الرحمة تنزل الآن بواسطتها على جميع خائفي الله وليس عليها فقط، وقد مكثت مريم عند اليصابات مدة ثلاثة أشهر عادت بعدها راجعة إلى بيتها في الناصرة . وبالتواضع والصلاة انتظرت ما وعد الله به بواسطة رئيس الملائكة جبرائيل وكانت عظمة ملكة السماء والأرض ملازمة لها .

ان الكنيسة تعيّد لبشارة والدة الإله الفائقة القداسة منذ أزمنة المسيحية الأولى في اليوم الخامس والعشرين من شهر آذار الذي به تمّ تجسُّد ابن الله كما وإنه، حسب التقليد الشريف، في هذا اليوم أيضاً كان خلق الإنسان الأول .

ميلاد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح بالجسد

لما سقط آدم وحواء في خطيئة معصية الله وطُردا من الفردوس نتيجة لمخالفتهما وصية خالقهما، أعطاهما الله وقتئذ وعداً بالخلاص بفادي البشرية، وهذا الوعد تضمّن النبوءة عن العذراء الفائقة القداسة وهو :"إن نسل المرأة يسحق رأس الحيّة" (تك ٣:١٥) وهذه البُشرى الأولى عن أمَ مخلّصنا الفائقة القداسة أُعيدت مراراً على لسان الأنبياء لتأهيل الناس لقبول ماسيًا (المسيح) الآتي، كان العالم ينتظر مجيء المخلِّص فاليهود على أساس النبوءات انتظروا مجيئه، والأمم انتظرت مجيئه ليخلِّصها من الكفر والشرور، وتمّت النبوءات عن زمن تجسُّد ابن الله، فيعقوب تنبأ بأن المخلِّص يأتي عندما يزول الصولجان من يهوذا قائلاً: "لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع بين رجليه حتىَ يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب" (تك ٤٩:١٠) والنبي دانيال تنبأ عن أن مملكة المسيح تأتي بعد أن تقوم مملكة قويّة وتسحق كل شيء، وعن إنَ مخلِّص العالم يظهر في سنيّ الأسبوع السبعين بعد صدور الأمر بتجديد أورشليم قائلاً "سبعون أسبوعاً قُضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدّسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفّارة الإثم وليؤتي بالبّر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدّوس القدّوسين" (دا ٩:٢٤) .

بلغ الوقت المحدَّد لأن الصولجان نُزع من ذريّة يهوذا وانتقل إلى هيرودس الآدومي، وظهرت مملكة رومة الحديدية الساحقة لكل شيء، وصارت أسابيع دانيال على وشك النهاية، واستتب السلم في العالم كلّه،

كما تنبأ الأنبياء قبل مجيء ربّنا يسوع المسيح الذي كان ينتظره العالم وخاصة اليهود، إذ أن قلّة منهم وهم المنتخبون كانوا ينتظرون في ماسيًا (المسيح) الموعود به مخلِّصا من الخطيئة والموت . أمّا معظم اليهود فكانوا ينتظرون في المسيح مَلِكاً عظيماً فاتحاً ومحرّراً لهم من تسلُّط الأجانب ومسلِّطاً إياهم على غيرهم من الأمم .

لقد بسطت رومة حكمها على كل الأمم المعروفة وقتئذٍ تقريباً وضمّتهم تحت لوائها فكانت فلسطين ولاية رومانية، ساس أُمور الدين فيها المحفل العظيم الذي كان يتشكّل من رؤساء الكهنة والكهنة والشيوخ، وقد تمّ انتظار الجنس البشري للمخلِّص لما تولّى هيرودس اليهودية .

وكما ذكر سابقاً إن العذراء مريم الفائقة الطهارة قد خُطبت ليوسف الصدِّيق تحت مظهر الزوجية ليحفظ بتوليتها ويعتني بها، فلم يكن رجل مريم الاَّ بالإسم فقط أمّا في الواقع فقد كان حافظاً لنقائها العذري المكرَّس لله، لقد ارتضى الرب أن يستر بالخطوبة بتولية أمّه الفائقة القداسة، ويخفي به سرّ التجسّد عن الشيطان لكيلا يعرف هذا العدوَ إنها هي تلك العذراء التي تنبأ عنها إشعياء قائلاً "ها العذراء تحبل وتلد ابناً" (إش٧: ١٤).

دوام بتولية العذراء مريم: إن كلمة عذراء بالعبرية تأتي بنطقين:-

١ - بتولة BETULA : تعني فتاة عذراء لم تعرف رجلاً .

٢ - ألما ALMA : تعني فتاة عذراء ناضجة كاملة الأنوثة لم تنجب أولاد ويحتمل أن تكون مخطوبة لرجل، ولكن لم تأت قط بمعنى فتاة متزوجة لا في الكتاب المقدّس ولا في أي كتاب آخر .

وفي سفر إشعياء جاءت كلمة العذراء بالنطق الثاني (ألما ALMA) لذلك اعتبرت هذه الآية النبوية منذ العصر المسيحي الأول عند كافة الآباء وفي الإنجيل نفسه إنها نبؤة مخصَّصة لمعجزة الميلاد البتولي للمسيح، جاءت كلمة "العذراء" في سفر إشعياء معرفة ب (أل) "ها العذراء وليس عذراء وهذا يعني أنه يتكلم عن إنسانة معروفة في خطة الله الأزلية للخلاص، تكلَّم عنها (بأل) التعريف ليعني أنها إنسانة محددّة هي العذراء مريم وليعني دوام بتوليتها، فهو يتكلَّم وكأنه يرى العذراء قبل الحبل وأثنائه وبعده ولا يرى فيها سوى العذراء التي ستلد عمانوئيل -الله معنا- فهو يراها عذراء قبل الحبل، وعذراء أثنائه وعذراء بعد الولادة، لذلك استخدم تعبير العذراء معرفة (بأل) ليعبِّر عن هذه الحقيقة" ومن المدهش حقاً إن إشعياء لم يستعمل في نبوته كلمة (بتوله BETULA) بل استعمل كلمة (ألما ALMA) لأن هذه الكلمة تفيد بأنه أصبح للعذراء علاقة خطوبة بآخر، واختيار إشعياء لهذه الكلمة (ألما ALMA) هو أكثر إعجازاً من حيث وصف الحقيقة . حقيقة ما سيتم فعلاً، فلو قال ان (بتوله BETULA) تحبل وتلد ابناً لكان ذلك مخالفاً للواقع، لأنه كان معروفاً ان مريم كانت مخطوبة ليوسف المحسوب رجلها (إيش) بالعبري والعذراء المخطوبة لرجل (ألما ALMA) يصح أن يقال لها من حيث التعبير العبري (إيشا) أي امرأة وهي لا تزال عذراء مخطوبة . وهذا ما حدث بالفعل، فالملاك قال ليوسف "يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك" (مت١: ٢٠) وواضح جداً من اختيار الوحي الإلهي على فم إشعياء لكلمة (ألما ALMA) بالذات يريد ضمان معجزة الحمل والميلاد تحت وصاية ورقابة رجل كخطيب لها، فحبلها أمر إما أن يكون مستحيلاً أو معجزاً فائق الطبيعة . والعجيب حقاً

أن تتم بالفعل مع يوسف ومريم كل هذه الاحتياطات التي ألمح إليها الوحيَ في سفر إشعياء وجمعها كلّها في كلمة واحدة (ألما ALMA)، فنجد إن مريم تُخطب فعلاً ليوسف وتصير (ألما ALMA) ويُدعى يوسف بالنسبة لها (إيش) أي رجلها وذلك لضمان تكميل الحبل الإلهي تحت الرقابة والرعاية والشهادة الدقيقة، حيث يظهر يوسف في رواية الإنجيل غيوراً وحساساً جداً لحبل العذراء، كل هذا يدخل بدقة مدهشة داخل خطة الله منذ البدء في اتخاذ الاحتياط لاعلان قداسة ومعجزة الحمل وولادة القدوّس تحت رقابة وشهادة خطيب غيور .

هكذا نرى انطباق دقائق نبؤة إشعياء على حوادث الميلاد العجيب في كشف وإعلان دوام بتولية العذراء . إذ ان ابن الله وُلد من عذراء حافظت على بتوليتها قبل الحبل، وفي الحبل، وبعد الميلاد أيضاً، ولذلك تدعوها الكنيسة، الدائمة البتولية .

ولعلّ أعظم شهادة تؤكد دوام بتوليتها هي شهادة لوقا الرسول الذي يقول في انجيله "فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته، ليُكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى" (لو٢: ٤ - ٦) .

إن في تدوين كلمات "امرأته المخطوبة وهي حبلى"لها إشارة بليغة بعيدة المرمى وهي أنه بالرغم من ان العذراء اعتبرت امرأة يوسف حسب قول الملاك "لاتخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حُبل فيها هو من الروح القدس" (مت١: ٢٠) فقد ظلّت مرتبطة مع يوسف بعقد الخطوبة فقط، وهذا يعني أنها عذراء كما هي كل أيّام حياتها. وان ابن الله كما دخل في أحشائها، هكذا خرج بسرّ يفوق الطبيعة، وكما كان الحبل بتولياً هكذا كان الميلاد بتولياً أيضاً.

إن ايمان كنيستنا الارثوذكسية الراسخ هو أن ابن الله ولد من عذراء حافظت على بكارتها وبقيت عذراء في الولادة وبعدها . وقد أكّد ذلك المجمع المسكوني الخامس (سنة٥٥٣) في قانونه الثاني على "دوام بتولية العذراء" . إذ قال : "تجسّد من القديسة المجيدة والدة الإله الدائمة البتولية مريم" كما حدّد مجمع لا تران (سنة ٦٤٩) في قانونه الثالث . "إن مريم بتول قبل الولادة وأثناءها وبعدها" وصادق عليه المجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينية (سنة ٦٨٠) وقد تنبأ حزقيال عن دوام بتولية مريم، إذ قال "قال لي الرب هذا الباب يكون مغلقاً لا يُفتح ولا يدخل منه إنسان، لأن الرب إله إسرائيل دخل منه فيكون مغلقاً" (خر ٤٤:٢) .

فسّر الآباء القدّيسون، أثناسيوس الكبير (٣٧٣م) وباسيليوس الكبير (٣٧٩م) ويوحنا الدمشقي في نهاية القرن الثامن هذه النبوءة، فقال الأخير "إن يوسف خطب مريم كزوج لها لكيلا يعرف الشيطان بميلاد المسيح من العذراء بلا رجل ويندفع يهيّج هيرودس ويُلهب حسد اليهود، لانه مذ لفظ إشعياء نبوءته أخذ هذا العدوَ يُراقب جميع العذارى ليعرف من منهنَ تحمل بلا رجل وتلد وهي عذراء".

ولما كانت مريم في بيت يوسف (وُجدت حُبلى من الروح القدس) (مت ١٨:١) وبدأ بطنها المقدّس الحاوي الإله الغير المنظور ينمو بطريقة منظورة، واستبانت الدلائل الطبيعية للحمل ملحوظة، خاصة بعد أن عادت العذراء القديسة إلى بيتها بعد إقامتها ثلاثة أشهر عند اليصابات، ولم يعُد في الإمكان إخفاء حالتها عن يوسف الشيخ الصدِّيق الذي لم يكن يعلم إن سر التجسُّد سيتمّ أمامه، فلمّا نظر حبلها استولى عليه الاضطراب الشديد وثارت في نفسه عاصفة الإرتياب والشكوك واستولت عليه الظنون الثقيلة، وبدأ يفكّر كيف يتصرّف مع

العذراء مريم، لأنه ظن إنها نقضت نذر البتولية وقال في ذاته : كيف أمكن أن يكون هذا ؟ إني لم أخطىء إليها لا بالفعل ولا بالفكر وها هي حبلى . فمن استطاع أن يستغويها ؟ وماذا علي أن أعمل الآن ؟ أأتمها كمخالفة للشريعة أو أصمت لنتحاشى كلانا الخجل ؟ فلو أتممتها لقتلت رميا بالحجارة على حسب شريعة موسى، ولو سكت لكان نصيبي نصيب الزناة الفجار . فالأفضل أن أصرفها سرا ولتذهب حيث تشاء. ولكن قبل أن ينفذ ما وطن نفسه عليه، صمم أن يخاطب العذراء نفسها فناداها قائلا " ما هذه الفعلة التي أعاينها فيك يا مريم ؟ إني أحار وأنذهل ويدهش عقلي، فانتزحي الآن عني سرا على عجل . ما هذه الفعلة التي أعاينها فيك يا مريم ؟ فانك ألحقت بي الخزي عوض الكرامة . والحزن عوض السرور. والذم عوض المديح . فلن أطيق تعيير الناس. لأني استلمتك من هيكل الرب طاهرة منزهة عن اللوم. فما الذي أعاينه الآن؟" (خدمة ساعات الميلاد الكبرى. على اللحن الثامن) .

اما القديس اثناسيوس الاسكندري فيمثل حالة يوسف هكذا :-

"فلما نظرها يوسف حبلى ولم ير الكنز الذي حوته في ذاتها، ثار وانبرى يعنفها قائلا : ماذا صار فيك يا مريم ؟ أفلست أنت تلك العذراء النقية التي تربت في المنازل الشريفة المقدسة ؟ أو لست أنت مريم نفسها التي لم تكن لتنظر إلى وجه رجل ؟ أو لست أنت مريم التي حرضها الكهنة بكل اجتهاد على التزوج مختارة؟ أو لست أنت مريم التي نذرت بصيانة وردة البتولية الغير الذابلة ؟ فأين خدر عفافك ؟ وأين وجهك الخجول ؟ إني لأخجل عنك وأنت تنظرين إلي بغير اضطراب كأنك تعرفين أنني أخفي خطيئتك" .

كم خجلت النعجة النقية . الحمامة الطاهرة . العذراء العفيفة من هذا الكلام، وكم احمر وجهها من ملامات يوسف الجارحة .

ولكن لم تجسر مع كل هذا أن تُطلع يوسف على بشارة الملاك، ولا على نبوءة اليصابات لها لئلاَ تظهر فخورة مزهوّة ومعجبة بنفسها، وإنما قالت ليوسف :"لَعُمر الرب الذي صان نقائي حتى الآن، إني لم أعرف خطيئة ولم يمسسني بشر . أمّا ما يتمّ فيّ فإنما يتمّ بمشيئة الله وفعله".

أمّا ولادة يسوع فكانت هكذا . لمّا كانت مريم أمّه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس . (مت١:١٨) .

يتعلّل منكرو بتولية العذراء بعبارة "قبل أن يجتمعا" ويقولون أن هذا دليل ضمني على اجتماعهما بعد الولادة .

إن استخدام كلمة "قبل" لايعني دائماً أن ما بعدها تغيَّر عن ما قبلها، فلو قلنا "أدرك الموت فلان قبل أن يتوب" فهل يعني هذا أنه تاب بعد موته؟، أو أن رجلاً مات قبل أن يأكل، فهل يعني هذا أنه أكل بعد موته؟ كلا ...، إنما المقصود هو أن الحمل بالمسيح تمّ بدون زرع بشر، بدون أن يجتمع يوسف مع العذراء مريم، وإنما هذا الحمل تمّ بقوة الروح القدس، ولا يمكن أن يكون قصده إنهما اجتمعا بعد الميلاد أو أن كلامه يعني ضمناً أنهما اجتمعا وانه من المستحيل أن يفكر يوسف الصدِّيق البار أو مريم العذراء في الاجتماع وإنجاب أولاد لأن ما طهّره الله لا يدنِّسه إنسان، فعندما يقول الإنجيلي "قبل أن يجتمعا" يشير الى الوقت الذي سبق الحبل، مظهراً ان الأمور قد تحققت بسرعة حيث كانت هذه الخطبة على وشك أن تصير زواجاً، وقبل حدوث ذلك وُجدت حبلى من الروح القدس، لكن لا يتبع هذا أن يجتمعا بعد الولادة، وينفي نفياً كاملاً اجتماعهما بعد الولادة .

ولكن ولأنه إنسان فقد كان يظن كباقي الناس بأن حبلها ناتج عن الخطيئة . الاَّ انه "إذ كان باراً ولم يشَأ أن يُشهرَها أراد تخليتها

سراً" (متى ١:١٩) ولكنّ الله العادل كشف له عن هذا السر العظيم "ولكن فيما هو متفكرّ في هذه الأمور إذا ملاك الربّ قد ظهر له في حُلم قائلاً . يا يوسف ابن داود لا تخفْ أن تأخذ مريم إمرأتك . لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس . فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع . لأنه يخلِّص شعبه من خطاياهم" (مت١:٢٠-٢١)، أرسل الله ملاكه ليوسف ليسكّن خوفه وينير عقله بضياء الحقيقة وليفهمه إن العذراء مريم المخطوبة له إنما هي نقيّة طاهرة وإن الواجب عليه أن يبقيها في بيته ليحفظها ويعتني بها، وقد قال القديس غريغوريوس النيسي المتوفي (سنة ٣٩٤م) :"كأنيّ بالملاك قال ليوسف لا تخشَ أن تأخذ مريم كإمرأتك بالخطبة وعذراء بالنذر لأنها هي الأولى في الشعب الإسرائيلي التي نذرت لله حفظ بتوليتها حتى آخر حياتها . لا تخشَ لأن المتولِّد منها هو من الروح القدس فستلد ابناً وأنت تسمّيه كأب وإن لم تكن لك شركة البتة في ولادته فستحرز الشرف بتسميتك له "يسوع" أي المخلِّص "لانه يخلِّص شعبه من خطاياهم"، فاستيقظ يوسف من النوم ولم يبقَ في قلبه أيَ موضع للارتياب لأنه عرف من زمن طويل نبوءة إشعياء . هذا فضلاً عن أن كلام الملاك حقّق اعتقاده بطهارة العذراء مريم ونقائها، فصدّق كلمة الرب "فلمّا استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره الرب وأخذ امرأته . ولم يعرفها حتىّ ولدت ابنها البكر" ودعا اسمه يسوع (مت ١:٢٤، ٢٥).

قبل الشيخ الصدّيق مريم المخطوبة له كعذراء فائقة الطهارة وكأمَ سيِّده الحبلى به من الروح القدس لخلاص العالم وأصبح يخدمها لا كخطيبة له، ولكن كأمّ الإله المخلِّص وسُلطانة العالم كلّه لأنها أصبحت في عينيه بعد ظهور الملاك له أمَ الإله مخلِّصه الفائقة البركات لا خطيبته .

NATIVITY OF OUR LORD
ΙΣ ΧΣ
ΜΡ ΘΥ

(ولم يعرفها حتى) وتفسير هذه الآية كما فسَرها الآباء قائلين: أي لم يجرؤ البتة على أن يمسّها . وكيف كان يقدر أن يفعل هذا وهو الصدَيق الذي سلّمت إليه العذراء من هيكل الرب، لا للزواج منها بل لصيانة بتوليتها تحت مظهر الزواج . فهل يقدر أن يمسَ العذراء التي نذرت لله بتوليتها الخالدة ؟ بل هل استطاع أن يمسَ أمَ ربه وخالقه ؟ إن عبارة (حتى ولدت) التي وردت في الإنجيل لا تعني انتهاء زمان البتولية بل تواليها الدائم بلا انقطاع. لأن كلمة (حتىَ) تُستعمل في الكتاب المقدّس بمعنى الزمان الذي لا نهاية له، وقد ورد مثال ذلك في قول الملك داود "قال الربُ لربّي إجلس عن يميني حتىّ أضع أعداءك موطئاً لقدميك" (مز ١١٠: ١) فهل يعني هذا إن ابن الله سيجلس عن يمين الآب إلى أن يضع الآب أعداءه تحت قدميَ ابنه ثم يعتزل أو يُعزل أو ينحيّه عن الجلوس عن يمينه ؟ أم إن الابن سيستوي بمجد عظيم على العرش عن يمين أبيه غالباً أبداً ؟ "جلس إلى الأبد عن يمين الله" (عبر ١٠: ١٢) .

كما إن ربّنا يسوع المسيح قال عن نفسه" (ها أنا معكم حتىَ انقضاء الدهر) (مت ٢٨: ٢٠) فهل يعني هذا الاَ يكون معنا بعد إنقضاء الدهر. بل الأمر بالعكس تماماً لأنه سيبقى معنا مدى الدهور التي لا انقضاء لها، كما قال هو لتلاميذه "الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الانسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على إثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر، وكل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو أمرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية" (مت ١٩: ٢٨-٢٩) . هنا (حتى) تُدخل ما بعدها في حكم ما

قبلها، مثال ذلك نقول : لم تنجب فلانه (حتى) ماتت، فهل يعني هذا إنها أنجبت بعد موتها ! كلا . (حتى) هنا تنفي نفياً كاملاً إنجابها لأنه ليس بعد الموت إنجاب، وعلى هذا عبارة "ولم يعرفها حتى ولدت إبنها البكر" تنفي نفياً كاملاً معرفته لها لا قبل الولادة، ولا بعد الولادة، أمّا كلمة (البكر) فتعني ولداً لم يتقدمه ولد آخر ولكنها لا تعني أن قد تبعه بالضرورة أولاد آخرون لأن المولود الأول يُسمّى بكراً سواء تبعه إخوة أم لا . فان كل أُمّ تقول بعد ولادتها ولدها الأول هذا هو ابني البكر مع إنها لا تعرف هل ستُرزق بغيره أم لا فيما بعد، وفي البيئة اليهودية كانت هذه التسمية للمولود الذكر الأول ضرورة . إذ أن الناموس الموسوي كان يفرض على هذا البكر واجبات خاصة تجاه الله تعالى . فكان واجباً على الوالدين أن يقدّما ابنهما البكر للرب "وإذا أدخلك الرب أرض الكنعانيين فاعزل كل فاتح رحم (أي البكر) للرب ... الخ وكل بكر من بنيك افده" (خر١٣:١١ - ١٦) .

وفي التواتر ومن المصادر الأبوكريفية إنه بعد ظهور الملاك ليوسف في الحلم جاء إلى بيته أحد معارفه من الكتبَة ويُدعى (أنَاس) أو (أنين) وإذ شاهد مريم حُبلى، وَشى بها إلى رئيس الكهنة والمجمع قائلاً "ان يوسف النجار الذي شهدتم كلكم ببرارته قد ارتكب إثما إذ لم يحفظ بتولية العذراء التي تسلّمها من هيكل الرب . وها هي الآن حُبلى" فأرسل رئيس الكهنة من ساقوا مريم ويوسف الى المجمع، وقال لمريم: "لقد نسيت الرب إلهك أنتِ يا من تربيّتِ في قدس الأقداس، أنتِ يا من كنتِ تتناولين الطعام من يدّي الملاك وتسمعين النغم الملائكي . كيف أقدمتِ على ارتكاب هذا ؟ فأجابت مريم باكية :"لعمر الرب إلهي، إنني نقيّة ولستُ أعرف رجلاً" ثم سأل رئيس الكهنة يوسف قائلاً:

"لمـــاذا خدعت هـذه العذراء التي أُطعمت كحمامـة فـي الـهيكل مـن ملائكة الله؟ لم تكـن ترغب أبداً أن ترى رجلاً أو ترتبط برجل وكان لها كل المعرفة والخضوع لله. لو لم ترتكب معها هذا العمـل لكـانت بقيـت محافظة على عذريتها. فأجـاب يوسف بقسَم إنه لم يلمسها أبـداً قـائلاً "لعمر الرب إلهي إنني نقيّ ممّا حصل لها" . حينئذ قال رئيـس الكهنـة :" سأعطيكما أن تشربا - ماء إختبار الربَ - ليُظهر الربَ خطيئتكمـا قـدّام الجميع" (عدد ٥:١١-٢٨) إن شرُب ماء الاختبـار وضعـه الله بواسـطة موسى كما ورد في الفصل الخامس من سفر العدد . فاذا أثـم الرجـل أو المرأة بالخيانة الزوجية وأنكرا ذلك، وجب على الكاهن أن يُسقيهما "مـاء القسم" حسب الشعائر الواردة في سفر العدد والخاصة بمثل هـذه الحالات، وبعد الانتهاء من هذه الشعائر كانت تظهر دائماً بقضاء الله آيـة عجيبـة يجازى بها الشخص الآثم .

فسُقي يوسف أولاً من هذا الماء، ثم سُقيت منه مريـم حسـب الشعائر المقررَة فلم يظهر على أحد منهما تأثيم، وبُهت الجميع من أنه لـم توجد فيهما خطيئة . فقال لهما رئيس الكهنة (إذا كان الله لم يكشف فيكمـا خطيئة فاذهبا بسلام وأطلقهما) وبقيت مريم في بيت يوسف عائشة عنـده بدون افتراق حتى نهاية حياته .

"وفي تلك الأيام صدر أمرٌ من أوغُسطس قيصر بـأن يكتتـب كـل المسكونة. وهذا الاكتتاب الأول جرى حين كان كيرينيوس والي سـورية . فذهب الجميع ليكتتبوا كلُ واحد إلى مدينته . فصعد يوسـف أيضـاً مـن الجليل مـن مدينة الناصرة إلى اليهوديـة إلى مدينة داود التـي تُدعـى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشـيرته . ليكتتـب مـع مريـم امرأتـه المخطوبة وهي حبلى" (لو٢:١-٥) .

ان بيت لحم مدينة صغيرة تقع جنوب مدينة أورشليم وقد سُميّت أيضاً مدينة داود لانه وُلد ومسح فيها ملكاً . وفيها قضت راحيل نحبها ، وفيها قبر يسىَ أبو داود وكانت تُسمَى قبلا أفراثا، إلاّ أن يعقوب سمّاها بيت لحم أي بيت الخبز لانه سبق فرأى بالروح وأعلن أن الخبز السماوي أي المسيح الرب سيُولد فيها. فبموجب أمر القيصر أوغسطس أسرع كل إسرائيلي إلى مدينة مولده ليكتتب في السجل الملكي .

سافر يوسف ومريم في أحوال غير مؤاتية وبطريق صعبة وفي فصل قاس من السنة وكان يقتضي ثلاثة أيّام لاجتياز الطريق . فلمّا وصلا إلى المدينة وقد دنا وقت ولادة مريم فتّش يوسف عن موضع تستريح فيه ويصلح لولادة ثمرة بطنها المبارك فلم يجد، لأن المدينة ضاقت بالقادمين إليها، ولم يقبلهما أحد "إذ لم يكن لهما موضع في المنزل" (لو ٢:٧) ولمّا مال النهار إلى المساء إضطرا أن يلجأ إلى ضواحي المدينة علّهما يظفرا بمأوى فانتهيا إلى مغارة كانت مأوى للرعاة وقطعانهم من البرد ورداءة الطقس وفي داخلها تجويف منحوت في حائطها الصخري كان يُستعمل معلفاً للبهائم، وكان فيها ثور وحمار فتمّت بهم نبوءة إشعيا النبيّ القائل "الثور عرف قانيه والحمار معلف سيِّده، أمّا إسرائيل فلم يعرفني وشعبي لم يفهمني" (إش ١:٣) .

نزل فيها الغريبان القديّسان، وفي هذه المغارة ولدت العذراء مريم في نصف الليل بلا وجع، الابن الأزلي المولود من الآب قبل الدهور، ومن العذراء بالجسد في وقت محدَّد، ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح، وُلدت بلا ألم لأنها حملت بلا لذّة، وكما أنها حملت وهي نقية طاهرة، كذلك ولدت ولم تعان وجعاً البتة. وبتوليتها لم تُنقَض بولادتها الرب. ويظلّ السؤال كيف

ولدت القديسة مريم ومع ذلك ظلّت عذراء ؟ والإجابة هي أنه كما خرج الرب يسوع المسيح من القبر والقبر مغلق، كما دخل على التلاميذ والأبواب مغلقة، هكذا خرج من رحم العذراء وظلّت العذراء كما هي وبتوليتها مختومة لم تُحلّ، وكما إن الإله الموجود في كل مكان ولا يحدّه مكان والقادر على كل شيء، في إمكانه أن يخرج منها دون أن يفضّ بكارتها، وأن يُولد وتظلّ بتوليتها مختومة وهذا ما حدث فعلاً، وترى الكنيسة في ما جاء في حزقيال (٤٤: ١، ٢) "ثمّ أرجعني إلى طريق باب المقدس الخارجي المتّجه للمشرق وهو مغلق . فقال لي الرب هذا الباب يكون مغلقاً لا يفتح ولا يدخل منه إنسان لأنّ الرب إله إسرائيل دخل منه فيكون مغلقاً" إشارة إلى بتولية العذراء الدائمة فقد حلّ عليها الروح القدس والكلمة الأزلي اتخذ جسداً من لحمها ودمها وحلّ في أحشائها تسعه أشهر وخرج، فلا يُعقل أن يفض بكارتها ولا يُعقل أيضاً أن تجتمع بعد ذلك بإنسان أو تلد بنين آخرين .

وقد ورد في إنجيل يعقوب الأبوكريفي انه عندما قرب وقت ولادتها طلبت من يوسف أن ينزلها عن ظهر الحمار فأنزلها، ودخلا إلى مغارة كانت بالقرب منهما . فتركها يوسف وذهب ليفتش عن قابلة يهودية في مدينة بيت لحم، وفي الطريق شاهد امرأة قادمة فطلب منها المساعدة . سألته: "أين تلك المرأة التي ستلد؟" فأجابها: "إنها خطيبتي،" فقالت له: "أليست هي زوجتك؟" فأجابها: "إنها مريم التي تعلّمت في قدس الأقداس في بيت الرب، وأصبحت نصيبي، وهي ليست زوجتي ولكنها حبلت من الروح القدس ." فقالت له القابلة: "هل هذا صحيح؟" فأجابها: "تعالي وانظري ." ذهبت معه القابلة وعندما وقفا بباب المغارة، وإذا بسحابة منيرة ظلّلت المغارة . وفجاءة أصبحت شديدة اللمعان داخل

المغارة حتى أنهما لم يقدرا أن ينظرا إليها . ثم بدأ نورها يخفت تدريجياً حتى ظهر الطفل وهو يرضع من ثدي أمه مريم .

صرخت القابلة قائلة: "كم هو مجيد هذا اليوم لأن عينيَّ قد رأتا منظراً عجيباً،" وخرجت من المغارة فقابلتها سالومي القابلة، فنادتها قائلة: "سالومي، سالومي أريد أن أخبرك بأمر عجيب شاهدته اليوم . عذراء ولَدت بعكس الطبيعة" فاجابتها سالومي: "لا أُصدِّق هذا إن لم أتأكد من ذلك بنفسي، كيف إن عذراء تلد؟" عادت مع سالومي ودخلت المغارة وقالت للعذراء: "يا مريم، أرها نفسك، لأن خلافاً وقع بيننا حول ولادتك ." ولمَّا مدَّت يدها لتتأكد ممَّا سَمعت شُلَّت يدها وصرخت متألمة: "ويلي لقد اخطأت، لأنني جرَّبت الربَّ فوقعتُ في يده"، وتضرَّعت إلى الله أن يشفيها. وقف أمامها ملاك الرب وقال لها لقد سمع الرب الإله تضرّعك. ضعي يدك على الطفل واحمليه فتشفي، فذهبت إلى الطفل ولمسته قائلة: "إن هذا هو ملك عظيم وُلد في إسرائيل"، وحالاً شُفيت يدها، خرجت من المغارة وهي متأكدة مما رأت، ولكن صوتاً جاء إليها قائلاً لها: "لا تخبري أحداً بهذا الأمر، حتى يأتي الطفل إلى أورشليم" .

يقول القديس غريغوريوس : "حبلت وهي عذراء وحملت وهي عذراء وولدت وهي عذراء واستمرت عذراء، فالأرض لم ترَ حتى الآن معجزة كهذه"، "وَلَدت ابنها البكر وقمَّطته وأضجعته في المذود" (لو ٢: ٧) وكما كان الحبل به عجيباً وفوق الطبيعة البشرية، كذلك أيضاً كانت ولادته عجيبة وفوق الطبيعة، لم تصحب ولادة المخلِّص أوجاع، ولَدت وهي ممتلئة فرحاً وقوّة وبادرت إلى خدمته، لم تحتج إلى مساعدة ولم تشعر بوهن كما تعاني النساء في حالة الولادة، فقمَّطته بيديها الفائقتي القداسة ووضعته في المذود وغذَّته

مـــن ثدييها، وسجـــد يوسف في ورع أمـــام الفائقة القداسة وأمـــام ابنها وإلهها، وعرف كنه المعرفة أن ابنها هو في الحقيقة مـــن الـــروح القـــدس. أمّا قبل ذلك الحين أي لمّا لم تكن قد ولدت ابنها البكر "بكر الحياة الجديدة، بكر النعمة الجديد، بكر الخليقة الجديدة فلم يعرفـــها، لـــم يكـــن يعرفها أنها أمّ الله المتجسّد، لأن هذا السرّ الإلهي كان مكتوماً عنه، وأدرك تماماً إنّها هي التي قيل عنها :"ها العذراء تحبل وتلد"، وتمت نبـــوءة ميخـــا النبي "أمّا أنتِ يا بيت لحم أفراته وانت صغيرة أن تكوني بين ألوف يـــهوذا فمنكِ يخرج لي الذي يكون متسلّطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منـــذ أيّام الأزل" (ميخا ٥:٢) وكما ترنّم الكنيسة المقدّسة "إني أرى سرّاً عجيبـــاً باهراً . المغارة سماءً والعذراء عرشاً شاروبيمياً. والمذود موضعاً شـــريفاً الذي اضطجع فيه المسيح الإلـــه الذي لا يسعه مكان . فنسبحه معظّميـــن"، في دقيقة ميلاد المسيح انفتحت السماوات وأضـــاء مجـــد الـــربّ الأرض، وظهر ملاك الرب للرعاة الذين كانوا ساهرين يحرسون قطعانهـــم وبشّرهم قائلاً "فها أنا أبشّركم بفـــرح عظيم يكون لجميع الشعب. إنّه وُلد لكم اليـــوم في مدينة داود مخلّص هو المسيح الرب، وهذه العلامة تجـــدون طفـــلاً مقمّطاً مضجعاً في مذود" (لو ٢:٨ - ١٢) وما أنهى كلامه حتى ظهر فجأة جمهور من الملائكة يمجّدون الله ويسبّحونه قائلين "المجد لله في الأعـــالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرّة" (لو ٢:١٣) .

صعد الملائكة إلى السماء وانتهت عظمة المشهد واطمـــأن الرعـــاة وجاؤوا إلى المغارة ليعاينوا ما حدث . فلمّا وجدوا العذراء والـــدة الإلـــه الفائقة القداسة والقدّيس يوسف والطفل ملفوف ومضطجع فـــي المـــذود، آمنوا بأن هذا الطفل إنمّا هـــو المسيح الرب (ماســـيّا) المنتظـــر الآتـــي ليخلّص العالم، فسجـــدوا له وأخبروا يوسف ومريم بكل ما سمعوا . أمّـــا

نحن "ماذا نقدّم لك أيّها المسيح شكراً على ظهورك في الأرض كإنسان من أجلنا . إن كلاً من المخلوقات التي أبدعتها يقدّم لك ما يفي بشكره فتقدّم الملائكة التسبيح، والسماوات النجم، والمجوس الهدايا . والرُعاة التعجب . والأرض المغارة . والبريّة المذود . أمّا نحن فنقدّم الأم العذراء. فيا أيّها الإله الأزلي ارحمنا .

والدة الإله (ثيوطوكس) : دُعيت العذراء القدّيسة والدة الإله لإن الكلمة (إبن الله) قد وُلد منها بالجسد دون أن يخلع عنه وجوده كإله أو ولادته الأزلية من الله الآب، ولكنه مع اتخاذه لنفسه جسداً بقي إلها كما كان . القدّيسة مريم لم تكن أمّ اللاهوت، بل كانت أمّ الابن المتجسّد الذي هو الله. فالكلمة الأم تُعرب تماماً عن علاقة مريم بالكلمة المتجسّد، وإن كلّ ما يأخذه أي طفل من أمّه أخذه الله الإبن من مريم دون مشاركة أي رجل في هذا، بل بعمل الروح القدس مباشرة . وهكذا بمعنى أتمّ وأصدق تكون مريم أمّ الله الابن في تجسده أكثر من أي أمّ بشرية في كونها أمّاً لولدها . هذا هو الاعلان القويم الذي اكّدته الكنيسة في المجمع المسكوني الثالث والذي يُنادى به في كل مكان، لذلك دعوا العذراء القديسة والدة الإله (ثيوطوكس)، ليس لأن طبيعة الكلمة أو لاهوته كانت بدايته من العذراء القدّيسة، بل لأنه منها وُلد الجسد المقدّس بنفس عاقلة وناطقة . وهو الجسد الذي اتحد به شخصياً الكلمة الذي قيل عنه إنه وُلد بحسب الجسد، وما دامت العذراء القدّيسة وَلدت الله بالجسد الذي أخذ الجسد بحسب الطبيعة، لهذا السبب ندعوها والدة الإله ولا نعني بذلك إن طبيعة الكلمة كانت بداية وجوده من الجسد .

كما اكّد المجمع المسكوني الرابع الخلقيدوني (٤٥١م) هذه

التسمية مُقراً ما يلي : "وهو، وإن يكن قد وُلد من الآب قبل الدهور باللاهوت، وُلد في الأيام الأخيرة بالناسوت من العذراء القدّيسة مريم والدة الإله لأجلنا ولأجل خلاصنا ... وهو إله باعتبار أنه في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو ١:١) في حين إنه إنساناً باعتبار إنّ "الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا" (يو ١:١٤) .

القديس كيرلّس الأورشليمي (٣١٥م-٣٨٦م) يقول :-

رئيس الملائكة جبرائيل يشهد لله في حملة البشارة إلى مريم إذ قال لها "فلذلك أيضاً القدّوس المولود منك يُدعى ابن الله" (لو ١:٣٥) . فماذا نسمىَ المرأة التي ولَدت ابن الله ؟ إنها تُدعى والدة الإله .

القدّيس غريغوريوس النيسي (٣٣٠م-٣٩٥م) يقول :-

"إن ابن الله اتخَذ لنفسه جسداً من العذراء، لذلك حق للعذراء أن تُدعى والدة الإله".

القدّيس غريغوريوس النزينزي (٣٢٩-٣٨٩) يقول :-

"إن كان أحد لا يؤمن أن القدّيسة مريم هي والدة الإله "ثيوطوكس" فهو غريب عن الله" .

إن كلمة (ثيوطوكس) أي والدة الإله ليست لقب شرف للعذراء، وإنما هي عقيدة لاهوتية تخصّ طبيعة المسيح المولود من العذراء . وتُعتبر في العقيدة الأرثوذكسية مدخلاً رسمياً للإيمان القويم .

القدّيس يوحنا الدمشقي يقول :-

"اننا ندعوها حقاً القدّيسة مريم والدة الإله، لأنّ إلهاً حقاً قد وُلد منها" ويقول إنّ هذا اللقب – والدة الإله – يحوي كل سرّ التجسُّد . كما يقول أيضاً "إن الله وُلد منها، ليس بمعنى إن الكلمة أخذ بدءه منها، بل

بمعنى إن الله الكلمة نفسه الذي وُلِـــد من الآب قبل الدهور وكان مـــع الآب والروح القدس بدون ابتداء، وإنه في الأيّام الأخيرة مـــن أجـــل خلاصنا حلّ في بطن العذراء، وبدون استحالة أخذ جسداً وولد منـها، لأن العذراء القدّيسة لم تحمل بانسان مجرّد بل بالإله الحقيقي . وليس الله فقط بل الله المتجسّد، الذي لم يأتِ بجسد من السماء ولم يمـرّ مـن العـذراء كمروره من أنبوب ولكنّه أخذ من جسدها مثلنا، لأنه لو أخذ جسـداً مـن السماء ولم يأخذ طبيعتنا فما هي الفائدة أن يُصبح إنسانا؟

إن قصد تجسد كلمة الله هي أن يأخذ طبيعتنا الساقطة والخاطئـة وينتصر بها على أعمـال الشر والخطيئة . ولذلك وعـن حـق ندعو القدّيسة مريم أم الله .

كان إلهاً حقيقياً وأنساناً حقيقياً، أقنوم وطبيعة الله الأبن اتحّـدت مع طبيعته البشرية من أمّه مريم ابنة آدم وحواء، وكما يقـول القدّيـس بولس الرسول "أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحـت النـاموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنّي" (غلا ٤:٤، ٥) .

ختانة ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح بالجسد

"تحتفل كنيستنا المقدسة بهذا العيد في اليوم الأول من شهر كانون الثاني"

"ولمّا تمّت ثمانية أيّام ليختنوا الصبيّ سُمّي يسوع كما تسمّى من الملاك قبل أن حُبل به في البطن" (لو٢: ٢١) .

أتمّت الأم العذراء جميع متطلبات الشريعة، وأوّلها ختانة ابنها الإلزامية حسب الشريعة وقبول العهد وامتيازاته بين الله وإبراهيم ونسله من بعده (تك١٧: ٩-١٤)، تمّ الختان حسب الشريعة، لم تكن له ضرورة للختان، ولكنه قبِلَه خضوعاً للناموس إذ "أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس" (غلا٤: ٤) وليكون مثالاً لنا للخضوع للكنيسة وتعاليمها المقدّسة .

قبل الختان في الجسد كمقدّمة لختاننا الروحي، وفي هذا أيضاً تأكيد على تجسُّد ابن الله الذي لو لم يكن جسده حقيقياً لما كان في مقدوره أن يُختن، ولا يستطيع إنسان القول أنّ المسيح لم يتّخذ جسداً حقيقياً مثلنا كما ادّعى بذلك الدوكيتيون(١) .

كانت الختانة تتم كما ورد في الكتاب المقدّس بحجر صوّان حاد (خر٤: ٢٥) أو بسكيّن (يش٥: ٢) وكان يتمّمها الأب، العم، أو المُطهِّر(٢) الذي كان يتلو صلاة خاصة ولا يتقاضى أجراً عن هذه الخدمة، وفي أيام

---

١ - الدوكيتيون : هم فئة أدّعت بان المسيح عبر في العذراء دون أن يأخذ شيئاً من جسدها، وإنه لم يصر إنسانا حقيقيا، بل بدى وكأنه إنسان وأنه ظهر في جسد خيالي كامل النمو ومستعدا لبدء الخدمة.

٢ - المُطهِّر : هو الشخص الذي يقوم بعملية الختان .

المسيح كان الكاهن يتمّم هذه المراسيم التي كان يقوم بها إمّا في الهيكل أو في مكان الاجتماع، وإذا رغبت الأمّ في حضور طقس الختان وجب إتمامه خارج الهيكل، إذ لم يكن يُسمح لها بالدخول حتى تنتهِ مدة تطهيرها (لا١٢: ٢-٥) .

كان الختان تمثيلاً وظِلاً للمعمودية المقدّسة إذ إن كلاهما يعني قطع الأهواء والتوبة لحياة جديدة في عبادة الله الحيّ، أمّا وقد ظهر سرّ المعمودية فقد بطل الختان وكما كتب القديس كيرلّس (٤٤٤م) بطريرك الإسكندرية "الطقس الظليّ بطُل بظهور الحقيقي (المعمودية) حيث لم يبق سبب للاستمرار في الختان الذي كان له ثلاثة أهداف :-

أولاً : - ميّزت ذرية إبراهيم عن باقي الشعوب، وكذلك المعمودية ميّزت المسيحيين عن غيرهم من الأمم .

ثانياً : - كان الختان تمثيلاً لنعمة المعمودية المقدّسة (كان المختونون يُعدّون في العهد القديم من شعب الله) كذلك الذين اعتمدوا للمسيح، تطهّروا من الخطيئة الجدّية، وأخذوا على أنفسهم ختم المسيح ودخلوا في عائلة الله المختارة .

ثالثاً :- كان رمزاً للمؤمن الذي يأخذ النعمة بقطع المباهج الجسدية بسكين الإيمان الحادة، العمل النسكي، بعدم قطع الجسد فقط، بل بتطهير القلب وختان الروح أيضاً .

دخول ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح إلى الهيكل

"تحتفل كنيستنا المقدسة بهذا العيد في اليوم الثاني من شهر شباط"

المولود البكر

"قدِّس لي كلَّ بكر كل فاتح رحم من بني إسرائيل من الناس والبهائم" (خر١٣: ٢) .

وُضعت هذه الشريعة للإسرائيليين تذكاراً لما صنع لهم الرب حين أخرجهم من مصر من بيت العبودية، عندما تقسَّى قلب فرعون عن إطلاقهم "إن الربَّ قتل كل بكر في أرض مصر من بكر الناس إلى بكر البهائم" (خرو١٣: ١٤ - ١٦) ولم يقتل أبكار الإسرائيلين بسبب دم الذبيحة الذي وُضع كعلامة على العتبة العليا وقائمتي أبواب بيوتهم (رسم الصليب) . وكما كُتب في شريعة موسى "إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام . وفي اليوم الثامن يُختتن لحم غُرلته ثم تُقيم ثلثة وثلثين يوماً في دم تطهيرها. كلّ شيء مقدَّس لا تمسّ، وإلى المقدس لا تجيء حتىَ تكْمل أيام تطهيرها. وإن ولدت أنثى تكون نجسة أُسبوعين كما في طمثها. ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها. ومتي كُملت أيام تطهيرها لأجل ابن أو ابنة تأتي بخروف حولي مُحرقة وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطيَّة إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن فيقدِّمهما أمام الرب ويُكفِّر عنها فتطهر من ينبوع دمها . هذه هي شريعة التي تلد ذكراً أو أنثى . وإن لم تنل يدها كفاية لشاة تأخذ يمامتين أو فرخي حمام الواحد مُحرقة والآخر ذبيحة خطيَّة فيكفِّر عنها الكاهن فتطهر" (لا١٢: ١-٨) .

ومع أن العذراء الكلّية الطهارة لم تحبل من زرع رجل، فقد

عملت بحسب الشريعة المفروضة على النساء الذين حبلوا بـــزرع رجـــل، وكان واضحاً إن يهود ذلك الزمن لم يدركوا من هي العذراء مريم ومن هو ابنها البكر، "ولمَّا تمَّت أيـــام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أورشليم ليقدِّموه للرب" (لو ٢٢:٢) قبلت العذراء تنفيذ هذا العهد والتطهير مع انها لم تكن بحاجة إلى ذلك حيث انها بقيت عذراء بتولاً بعـــد الـــولادة ولكن لتواضعها العميق خضعت لرسوم الشريعة . وهذا يذكّرنـــا بكلمـــات ملاخي النبي "ويأتي إلى هيكله السيِّد الذي تطلبونه ومـــلاك العـــهد الـــذي تُسَرّون به هوذا يأتي قال ربّ الجنود" (ملا٣:١) وحيث أنها كانت فقيرة فلم تستطع ان تقدِّم سوى فرخي يمـــام(١) فـــي يـــوم تطـــهيرها (لا١٢:٨)(٢)، وهكذا القديم الأيّام الذي أعطى موسى الشريعة في سيناء، وضـــع نفســـه تحت شريعته وتممَّها في هيكله .

يُورد القدِّيس اندراوس الاقريطـــي (٦٦٠م - ٧٤٠م) إن ســـبب تنازل (الكلمة) ليُقدَّم في هيكله، لأثبات أن اختتانه بالجســـد وحملـــه مـــن سمعان الشيخ كان تجسّداً وظهوراً حقيقياً في العالم وليس خيالياً .

قبل الحديث عن إحضار مريم ويوسف الطفل إلى الهيكل، يجـــب التحدّث قليلاً عن قصّة سمعان الشيخ الكاهن والمترجم، الذي سيُقدَّم إليـــه الإبن البكر.

في القرن الثالث قبل الميلاد خلال حُكم الملك المقدوني (بطليموس) الثـــاني (٣٠٨ - ٢٤٦ق.م) ويُدعى أيضاً (فيلادلفوس) الذي كـــان محبـــاً للعلـــم

---

١ – الطائران يمثّلان العهدين القديم والجديد والذي رأسهما واحد هو المسيح .

٢ – وكانت مراسيم الفداء تتم :-

تقديـــم الطفل البكـــر للأم وليس للأب إلى الكاهـــن الذي يمنحه بركتيـــن، بركـــة الفـــداء وبركـــة البكورية وبعدهـــا تُدفـــع فديـــة نقدية عنه مقدارهـــا خمســـة شـــواقل، "الشـــيقل = ٢٥٠ فلـــس تقريبـــاً" (عد٣:٤٦-٥١) .

وجامعاً للكتب، وبإيعاز من أمين مكتبة الإسكندرية التي كانت أشهر مكتبة في ذلك العصر اقترح على الملك ترجمة "الشريعة اليهودية" وإضافتها إلى مراجع المكتبة . أرسل الملك إلى اورشليم رسالة إلى رئيس الكهنة إلعازر يطلب فيها إرسال ستة شيوخ من كل قبيلة من قبائل إسرائيل إلى الاسكندرية لترجمة العهد القديم من العبرية إلى اليونانية، فذهب العازر مع تسعة وستيّن شيخاً من الذين يُتقنون كلا اللغتين وكان من بينهم الشيخ الكاهن سمعان، وبينما كانوا مسافرين من أورشليم بحثوا فيما بينهم عن كتاب الأنبياء . فقال لهم سمعان : عندما بدأت أفسِّر نبوءة إشعياء . قرأت آية "ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عِّمانوئيل" وهذه الآية جعلتني أتعجَب كثيراً وهي كيف إن عذراء تحبل ؟ وكيَف يمكن ان يُولد الله؟ أنا لا أُصدِّق بأن هذا سيحدث أبداً، وعندها لمست يد غير منظورة سمعان وسمع صوتاً يقول له :"سوف ترى المسيح وتحمله على يديك ولن تموت حتى يتمَّ هذا"، وبينما هم سائرون وصلوا إلى نهر، وفي ذلك الوقت نزع خاتمه من إصبعه ورماه في النهر قائلاً :"إذا كانت آية إشعياء صحيحة، سيعود إليَّ هذا الخاتم ثانية . ثم تابعت المجموعة سيرها، وعندما وصلوا أول مدينة صادفتهم اشتروا سمكاً لتحضيرها إلى وجبة العشاء، وعندما بدأ سمعان يجهِّز السمكة التي اشتراها وذلك بشقِّ بطنها لتنظيفه وجد خاتمه بداخلها فصدّق كلمات النبوءة، وفي تسليم آخر في تاريخ (نيكيفورس كالستوس) أنه عندما ترجم سمعان كتاب إشعياء النبي توقّف عند ترجمة "ها العذراء تحبل" فكَر في كيف أن عذراء تحبل، وأراد تغيير كلمة عذراء فظهر له ملاك الرب وأمسك بيده وقال له "أكمل الترجمة كما هي، وآمِن بما كُتب ولن تموت حتى ترى الطفل وتحمله على ذراعيك" .

وحتى لا يتّفق الشيوخ على الترجمة وعدم تدخل أي طرف آخر، أمر بطليموس (فيلادلفوس) ببناء غرف مستقلة كل منها عن الأخرى للسبعين شيخاً ووضع كل شيخ بغرفة ليقوم بترجمته الخاصة . وأمر

بالإعتناء بهم وتلبية حاجاتهم ومنع أي منهم الاتصال بالآخر، حتى يضمن صحة الترجمة وبعد أن انتهوا من الترجمة قُورنت ترجماتهم مع بعضها بعضاً، فكانت متوافقة لا من حيث المعنى فقط بل من حيث تشابه الكلمات أيضاً، وكذلك تركيب الجُمل ووصف نفس الأشياء بنفس الطريقة، واستنتج من ذلك أن الترجمة قد تُرجمت بقوة مقدّسة واعتبر الرجال مستحقّين التمجيد لأنهم أعزّاء عند الله، وأعادهم إلى بلادهم وأسبغ عليهم عطاياه، وأصبحت هذه الترجمة للعهد القديم تُعرف بالترجمة السبعينية وهي الوحيدة المعتمدة في الكنيسة المقدّسة الرسولية .

والآن نعود إلى هيكل أورشليم .

عندما دخلت العذراء التقيّة مع طفلها إلى الهيكل وكان دور زكريّا أبا يوحنا المعمدان في الخدمة كرئيس كهنة، أوقفها في المكان المخصّص للعذارى حيث لم يكن يسمح بوقوف نساء متزوجات في هذا المكان . فأغتاظ منه الكهنة والفريسيون وأرادوا أن يوقفوها في المكان المخصّص للنساء المتزوجات، ولكن زكريا استنار بفعل الروح القدس وبقوة النبوءة أصرّ على إن مريم لا زالت عذراء ولو أنها ولدت الإبن . وعمله هذا أثار عليه حقد شيوخ إسرائيل فاحتقروه وكرهوه ووشوا به لهيرودس لقتله.

ويتفق القدّيس غريغوريوس النيسي (٣٣٥م - ٣٩٤م) مع أخيه القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠م - ٣٧٩م) بأن زكريّا قد قُتل بين الهيكل والمذبح بعد ولادة يسوع بسبب إيقافه القدّيسة مريم في المكان المخصّص لوقوف العذارى .

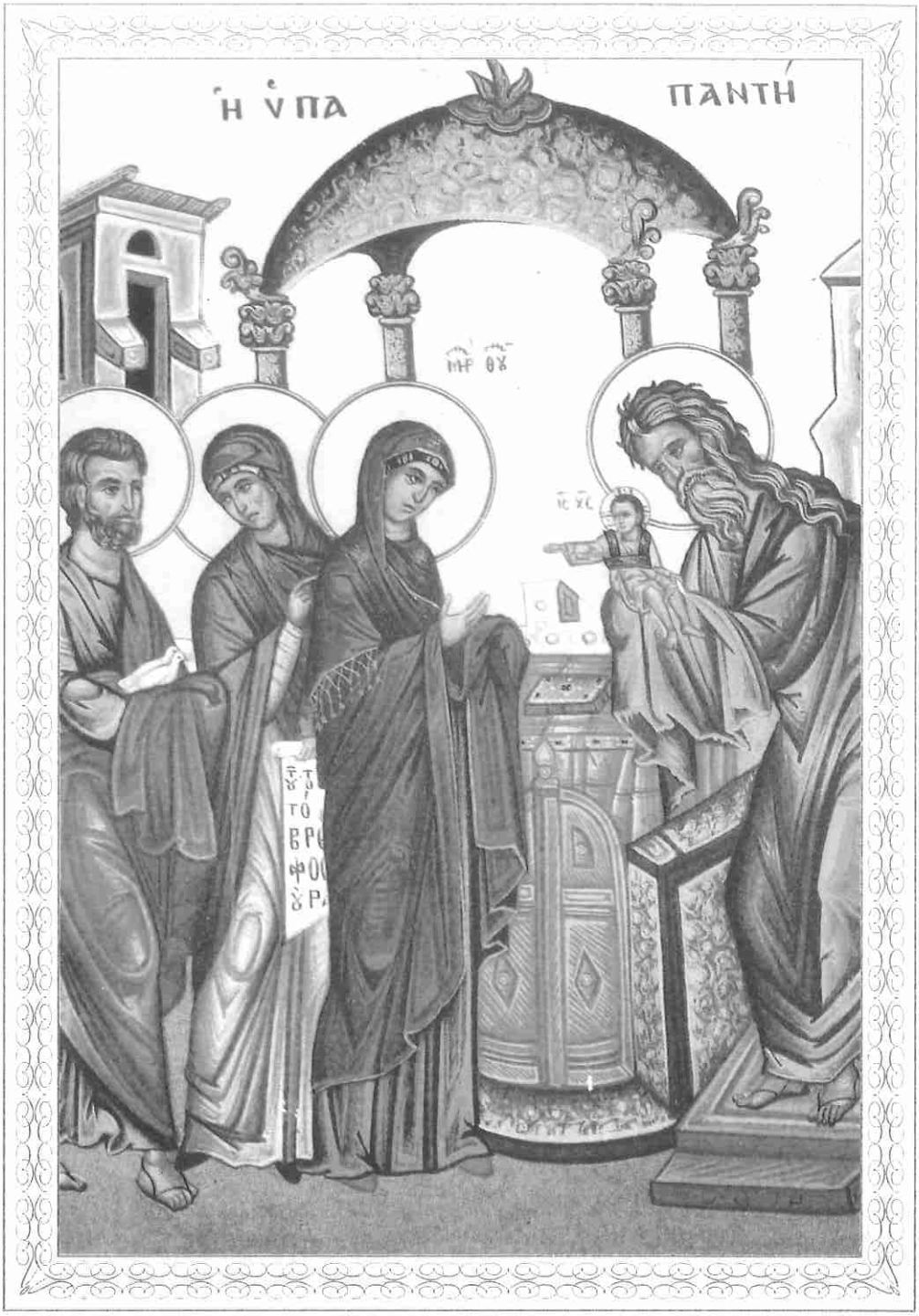
Ἡ ΥΠΑ
ΠΑΝΤΗ

سمعان الشيخ يدخل إلى الهيكل

"وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان . وهذا الرجل كان باراً تقيًا ينتظر تعزية إسرائيل والروح القدس كان عليه . وكان قد أُوحي إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب . فأتى بالروح إلى الهيكل" (لو ٢: ٢٥ - ٢٧) وعندما دخل بالصبيَ يسوع أبواه "أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال: " الآن تُطلق عبدك يا سيِّد حسب قولك بسلام. لأنَ عينيَ ....."(لو ٢: ٢٨ - ٣٠) يشير القدِّيس أفرام في عظته عن ربَنا يسوع المسيح، إن الطفل يسوع كان حقيقة هو الذي يُقدِّم الكاهن إلى أبيه وليس الكاهن يقدِّمه . "عندما أخذه سمعان الكاهن على ذراعيه ليقدِّمه أمام الله فهم عندما رآه بأنه لا يقدِّمه، بل انه نفسه يُقدَم . لان الابن لا يُقدَم بواسطة خادم إلى أبيه، ولكن الخادم يُقدَم بواسطة الإبن إلى إلهه . لأنه لا يمكن بانه هو الذي تُحضر إليه كل تقدمة ان يقدَم بواسطة الآخر . حتى ان الذي يقبل التقدمات أعطى نفسه لأن يقدَم بواسطة آخر . حتى إن أولئك الذين يقدِّمونه، يمكن أنهم أنفسهم يُقدَموا منه .

"الآن تُطلق عبدك يا سيِّد حسب قولك بسلام . لأنَ عينيَ قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قُدَام وجه جميع الشعوب . نور إعلان للأُمم ومجداً لشعبك إسرائيل" (لو ٢: ٣٠ - ٣٢) ويخبرنا التقليد الشريف بأن سمعان قد رقد عن عمر يناهز الثلاثمائة سنة، مُدركاً عظمة الحدث ما جاء على لسان سمعان قائلاً، "مشاهداً إيّاك طفلاً، أيُها الكلمة المولود من الآب

قبل الدهور، أنذهل خائفاً بحملك، ايها السيِّد على ذراعي، والآن أطلب منك أن تطلق عبدك بسلام لأنك متحنِّن، وعيناي رأتا "السرَ المكتوم منذ الدهور ومنذ الأجيال، لكنَه الآن ظهر لقدِّيسيه (كول ١:٢٦)، أطلق عبدك من رباطات الجسد الى إلحياة التي لا تعرف عصرا ولا نهاية، أيُّها المانح العالم الرحمة العُظمى .

كتب القديس رومانوس، إن ملك القوّات السماوية سمع صلاة الرجل البار. وخاطبه بدون أن يراه أحد، الآن يا صديقي أُطلقك من هذا العالم الوقتي إلى عالم الخلود . وأُرسلك إلى موسى والأنبياء، أخبرهم بأنه كما سبق أن تنبأوا . أتيت وولُدتُ من عذراء، ورآني الناس في العالم وسكنت بينهم كما سبق وخبَّروا، ثم قال لها الشيخ، كل الأنبياء بشَروا بابنك الذي حملت به بالروح بدون بذرة رجل، وكذلك النبيّ سبق وأن أعلن عن هذه الحوادث وأعلن عن هذه العجيبة بأنك انت أمَ الله الباب المغلق لأن منه دخل الرب الإله وهذا الباب بقي مغلقاً (خر ٢:٤٤) وتعجَب يوسف ومريم ممّا سمعاه من سمعان "حامل الإله" الذي كان يتكلَّم مع يسوع ليس كطفل بل كقديم الأيّام، ويطلب إليه كما إلى الله المتسلِّط على الحياة والموت أن يطلقه إلى الحياة الأخرى، "وباركهما سمعان وقال لمريم أمَه ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة لا تُقاوم . وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف . لتُعلن أفكار من قلوب كثيرة" (لو ٢:٣٤ – ٣٥) .

لقد دُعي مُخلِّص العالم، ورغبته أن يخلِّص ويقدِّس كل إنسان، وسقوط وقيام الإنسان بمتناول كل شخص، وهذا مبني على الإيمان أو عدم الإيمان بالمخلِّص، أمّا العلامة التي لا تُقاوم فهي علامة الصليب الذي

صُلب عليه الرب يسوع المسيح، والذي تنادي به الكنيسة المقدَسة بأنه خلاص العالم، وهذه العلامة ستتعارض مع غير المؤمنين، وكما نعلم إن اليهود في ذلك الوقت كانوا ينتظرون مسيًا (المسيح) كملك عظيم وفاتح يخْضع جميع الحكام والعروش في العالم إلى عرش داود الذي سيشغله اليهود ويحكموا الجميع كنسل لإبراهيم، وعندما ظهر المسيح على الأرض خيَب آمال الشعب اليهودي الذين فسَروا آيات العهد القديم بطريقة مخالفة لاعتقادهم بمملكة المسيح؛ ولذلك فموت المسيح المخلِّص على الصليب كان عثرة لليهود (١كو ١:٢٣)، أمَا السيف الذي سيجوز في نفس العذراء الذي سبق فرآه الشيخ سمعان بالروح كنبيَ، فهو الآلام المستقبلية التي ستقاسيها السيِّدة، وكان قد بدأ بشكوك يوسف حول حبلها المقدّس وما أتى بعده من هروب إلى مصر خوفاً من سيف هيرودس، ومشاهدتها حقد شيوخ اليهود على ابنها وتآمرهم عليه، وهو يبشِّر فيهم ويعمل لهم العجائب ليؤمنوا، ولكنَ السيف الأكبر الذي جاز في نفسها عندما كانت واقفة تحت صليب ابنها وإلهها وهو معلَق عليه، هذا السيف الذي رآه الشيخ المتقدِّس . هذا السيف سيبقى إلى نهاية هذا العالم يجوز في نفس الكنيسة عندما تتعارض علامة الإيمان مع غير المؤمنين .

وفي ذلك الوقت كانت نبيَة حنَّة بنت فنوئيل من سبط أشير . وهي متقدَمة في أيام كثيرة. قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريتها. وهي أرملة نحو أربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً. فهي في تلك الساعة وقفت تسبِّح الرب وتكلَّمت عنه مع جميع المنتظرين فداءً في أورشليم" (لو ٢:٣٦ –٣٨) ويكتب القدِّيس أمفيلوخيوس (٣٣٩م–٤٠٠م) قائلاً بلسان حنَة للمنتظرين الفداء: "أكرموا

هذا الطفل، ليس لأنه طفلاً على صدر أمه لا يستطيع الوقوف على الأرض، وختن في اليوم الثامن كباقي الأطفال، بل لأنه هو الطفل الأزليّ الوجود مع الآب . والآن، من أجل خلاصنا نزل من الأعالي واتّخذ جسداً من هذه العذراء الكلّية القداسة. هذا الطفل الذي يحمله سمعان على ذراعيه، هو ملء السموات والأرض ومع هذا فقد وسعه رحم الأم العذراء . عمره أربعون يوماً ومع هذا لم يُولد أحد قبله . هذا هو الذي قال عنه إشعياء النبي "لأنّه يُولد لنا ولد ونعطى ابناً" (إش٩:٦) لاحظ النبي يقول: "يُولد ونُعطى" . الذي وُلد شُوهد بالعين . والذي أُعطي عُرف بالعقل والفكر فقط . هذا الطفل سبّحته الملائكة ورؤساء الملائكة، الشاروبيم، السيرافيم، العروش، السيادات، والقوات، فدعونا نعبده معهم ونعظّمه كإله حقيقي . وبهذا تكون حنّة قد أتمّت بفرح هدف ترمّلها، باعترافها بالسيّد بوضوح في الهيكل، وبتعظيمها والدة الإله أمام جميع الحاضرين . "ولمّا أكملو كل شيء حسب ناموس الربّ رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة" (لو ٢:٣٩، ٤٠) .

سجود المجوس

"ولمّا وُلـد يسـوع في بيـت لحـم اليهودية في أيّـام هـيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءُوا إلى أورشليم قـائلين: "أيـن هـو المولود ملك اليهود؟" (مت٢: ١ - ٢) .

جاء في التواتر إن المجوس كانوا جماعة من الرجـال الحكمـاء، ومن ذوي السلطة العظيمة في بلاد الفرس . كانوا يعملـون فـي دراسـة الطب، الفلسفة، العلوم الطبيعية، فَلَكيّون يتتَبعون النجـوم والكواكـب، وتفسير الأحلام، كانوا ثلاثة ملوك من مناطق مختلفة في بـلاد فـارس(١) وصلوا إلى بيت لحم بعد فترة قصيرة جداً من ولادة المسيح حيث إن النجـم ظهر لهم ساعة بشارة العذراء بالحبل في المسيح(٢)، أمّا أسـماؤهم فـهي هكذا: الأول، (فيلخيور) وكان شيخاً كبير السن مبيضّ الشعر واللحية ويمثّل ذرية سام، والثاني (كاسبار) كان أمرداً صغير السن أحمر البشرة ويمثّـل ذريّة يافث، والثالث (بلتازار) وكان أسود اللون كثيف اللحية ويمثّل ذريـة حام . هكذا ومن خلال هؤلاء المجوس الثلاثة عبد الجنس البشـري ربّنـا وإلهنا المتجسّد. وقد سبق إشعياء فخبّر عن مجيء الحكماء الثلاثة عندمـا

---

١ - ويمثّلون الثلاثـة أجناس البشر التي انحـدرت مـن أبناء نـوح الثلاثة : سـام، حـام ويافث ومنـهم تفرّعت جميع الشعوب .

٢ - وقادهـم مـدة تسعة أشهر، لم يرد في تقاليد الكنيسة بأن هذا النجم كان جرما سماويًا بل إنه كـان قوة ملائكية مقدّسة ظهرت بشكـل (نجم)، لأنه لا يمكن لأي نجم طبيعي ان يشعّ اكثر مـن جميـع النجوم وأكثر مـن الشمس في وسط النهار وهـو يقودهم ثم يتوقّف فوق الطفل يسوع .

قال "جمال بُكران، مديان وعيفة كلّها تأتي من سبأ . تحمل ذهباً ولباناً وتبشّر بتسابيح الربّ" (إش ٦٠:٦) .

عندما وصل المجوس إلى اورشليم اختفى النجم فسألوا "أين هو المولود ملك اليهود ؟ فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له، فلمّا سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه" (مت ٢:٢ – ٣) ودعا كل رؤساء الكهنة والكتبة من الشعب وسألهم أين يولد المسيح ؟ فأجابوه في بيت لحم لأنه مكتوب "وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا . لأن منك يخرج مدبرٌ يَرعى شعبي إسرائيل" (مت ٢:٦) .

وكما جاء في ميخا "أما انتِ يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا . فمنك يخرج لي الذي يكون متسلّطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيّام الأزل" (ميخا ٥:٢) ولو علم هيرودس معنى هذه الآية لعرف أن مُلْك المسيح ليس أرضياً لأن أيّامه منذ الأزل وأن ملكه سماوي . ولمّا كانت بيت لحم تعني بيت الخبز لذلك فسّرها القديس غريغوريوس الكبير بأنها تشير إلى ما قاله السيّد المسيح عن نفسه "أنا هو الخبز الحيّ الذي نزل من السماء" (يو ٦:٥١) .

دعا هيرودس المجوس وتحقّق منهم زمان ظهور النجم لهم، ثم أرسلهم إلى بيت لحم ليفتّشوا عن الصبيّ ومتى وجدوه يعودوا إليه، ليذهب ويسجد له أيضاً مخفياً عنهم نيّته في قتل الطفل، وهنا ترى التدبير الإلهي العجيب، إن اليهود والمجوس يعلّمون كل منهم الآخر، فاليهود عرفوا من المجوس أن نجماً في الشرق أعلن عن المسيح، والمجوس عرفوا من اليهود عن النبوّات القديمة التي سبق وأن أخبرت عنه . وهذا زاد من حماس المجوس في التفتيش عليه وزاد من إيمانهم به، فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدّمهم

حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبيَ . فلمّا رأوا النجم فرحوا فرحا عظيماً جداً وأتوا إلى البيت ورأوا الصبيَ مع مريم أمه . فخرّوا وسجدوا له" (مت ٢: ٩ – ١١) .

عندما دخل المجوس لم يروا أمامهم عرشاً ملوكياً، بل فقر مدقع، لم يكن متوجاً باكليل ملوكي، ولم يكن يرقد على فراش مذهب، بل بسترة قصيرة تكاد لا تغطي جسده العاري، لم يروا فيه شيئاً ملوكياً ولكنهم اكتفوا بشهادة النجم، وفرحوا عندما رأوا الطفل، وعرفوا بالروح إنه كائن كليَ القداسة، وتحركوا ليقدّموا له فروض العبادة . لم تكن العذراء تحمل علامة متميّزة ولا شيئا ماديا حرّكهم ليفعلوا ذلك، إذاً ما الذي دفعهم الى ذلك ؟ النجم والنور الذي وضعه الله في قلوبهم قادهم خطوة خطوة لمزيد من المعرفة الكاملة، سجدوا له "ثم فتحوا كنوزهم وقدّموا له هدايا ذهباً ولباناً ومُرّاً" (مت٢: ١١) وهي أمور ذات دلالات؛ فالذهب يشير إلى سلطته الملكية، واللبان إلى سلطته الإلهية، والمرّ إلى الآلام التي سيقاسيها في موته على الصليب من أجل افتداء العالم أجمع، وعندما أرادوا العودة إلى هيرودس ليخبروه عن مكان وجود المسيح حسب طلبه، أوحي إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس فانصرفوا في طريق آخر عائدين إلى بلادهم . ويستنتج القدّيس يوحنا الذهبي الفم من رحلتهم قائلاً: "عندما عادوا إلى بلادهم استمروا في عبادته والتبشير به وعلّموا الكثيرين وأخيراً عندما أتى القدّيس توما الرسول إلى بلادهم إنضموا إليه واعتمدوا منه وساعدوه في نشر إنجيل المسيح" . والملاحظة الهامة جداً هو أن وطننا الحقيقي هو الفردوس الذي ندخله بالإيمان بالمسيح والسير بحسب تعاليمه والتوبة عن الخطايا التي فعلناها وعدم الرجوع إلى الطريق التي تركناها وراءنا.

كما أن الكنيسة المقدسة تعلّمنا بأن لا نؤمن أن كل إنسان يولد وله نجم يحدّد مصيره اعتمادا على أن نجماً ظهر عند ولادة الرب بالجسد . ورد في الإنجيل عن النجم "حتىَ جاء ووقف حيث كان الصبي" (مت ٢:٩) وهذا يبيّن أن الصبَى لم يأت إلى النجم بل النجم أتى إلى الصبَى . وهكذا لم يحدّد النجم غاية الطفل، بل إن الطفل هو الذي حدّد غاية النجم، لأن الخالق الذي خلق الناس، هو وحده الذي يحكمهم ويحدّد مصيرهم .

هروب العائلة المقدّسة إلى مصر

وبعدما انصرف المجوس "إذا ملاك الربّ قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً: "قُم وخُذ الصبيَ وأمّه واهرب إلى مصر وكُن هناك حتى أقول لك. لأنَ هيرودس مُزمع أن يطلب الصبيَ ليُهلكه. فقام وأخذ الصبيَ وأمّه ليلاً وانصرف إلى مصر" (مت ٢:١٣ - ١٤) .

لما رأى هيرودس أن المجوس عادوا راجعين إلى بلادهم دون أن يرجعوا إليه ليخبروه بأمر الطفل، استشاط غضباً وفكّر في كيفية القضاء على الطفل الذي يهدّد ملكه، وحَسَب الوقت منذ ظهور النجم للمجوس إلى ذلك التاريخ ورغبة منه في قتل الطفل، أمر جنوده بقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وكلّ تخومها من ابن سنتين فما دون ظاناً انه بذلك لا بد أن يقتل معهم الطفل يسوع، فحدثت مذبحة رهيبة إذ نفّذ جنوده الأمر الفظيع وبدأوا بقتل الصبيان فمنهم من قُطع رأسه بحدّ السيف، أو بالطعن بالخناجر وهم على صدور أمهَاتهم، أو قُطعت أجسادهم إلى نصفين، أو دعساً بالأرجل، أو أُخذوا من أمهَاتهم ورُجموا، وسُمع بكاء وعويل الأمهَات الذين فقدوا أطفالهم . وتمّت نبوءة إرميا النبيَ "صوت سُمع في الرامة نوحٌ بكاءٌ مرٌّ . راحيل(١) تبكي على أولادها وتأبى أن تتعزّى عن أولادها لأنهم ليسوا بموجودين" (إر ٣١:١٥) وقد قُتل في هذه المذبحة الرهيبة (١٤٠٠٠) أربعة عشر الفاً من الأطفال الأبرياء ضحية هذا الملك الطاغي .

---

١ - راحيل : هي إمرأة يعقوب وسمّاه الرب إسرائيل، "ولدت راحيل في طريق بيت لحم (أفراته) وتعسّرت ولادتها وماتت وهي تنجب ابنها بنيامين، ودُفنت هناك ولا زال قبرها موجودا على طريق بيت لحم ويُعرف بقبر راحيل، وكان قد سبقت ورأت بالروح مذبحة الأطفال وتألمت وبكت بينما كانت تقاسي في حشاها .

كان يوحنا ابن اليصابات البالغ من العمر ثمانية عشر شهراً هدفاً للجنود لقتله، فهربت اليصابات مع ابنها إلى جبل خارج المدينة وفتشت على مكان لتختبىء به فلم تجد، وعندما اقترب منها الجند صرخت بصوت عظيم قائلة "يا جبل الله إقْبَل الأمّ وطفلها" حينئذ انشقّ الجبل ودخلته مع ابنها، وأشرق عليهما نور، وملاك الرب كان معهم يحرسهم، وبقوة الله ظهر نبع ماء ونمت شجرة نخيل وأثمرت، وقد رقدت أليصابات بعد مدة قصيرة وبقي يوحنا يعيش في الصحراء مُهيئاً طريق الرب .

كما أرسل هيرودس جنوده إلى زكريّا الكاهن والد يوحنا، وبينما كان يخدم المذبح سأله الجند: "أين خبأت ابنك؟" فأجاب زكريّا: "أنا خادم للرب وأقضي وقتي في هيكل الرب ولا أعرف أين ابني" . فاخبروا هيرودس بذلك ولكنه أعادهم لزكريّا قائلين له . أخبرنا الحقيقة . أين ابنك ؟ فلم يخبرهم، وبحسب أوامر هيرودس ذبحوا رئيس الكهنة قبل الفجر بين الهيكل والمذبح (مت ٢٣:٣٥، لو ١١:٥٠ - ٥١) . وبعد أربعين يوماً من رقاد زكريّا رقدت زوجته اليصابات تاركة يوحنا في الصحراء تُطعمه الملائكة . وإنّ أحد أسباب قتل زكريّا، كما ورد في التقليد، يعود إلى الكتبة والفريسيين الذين أوغَروا صدر هيرودس الملك بسبب إعلان بتولية مريم أمام الجميع عند دخولها الهيكل وأوقفها في المكان المخصّص للعذارى .

بعد أن قتل هيرودس الأطفال، التفت إلى شيوخ اليهود الذين كشفوا له مكان ولادة المسيح، فذبح رئيس الكهنة (هيركانز) وسبعون شيخاً من السنهدرين وقتل زوجته مريمنا وابنيها الإسكندر وأريستوبولوس

وابنه أنتيباريوس وكثير من أصدقائهم الذي ساورته الشكوك فيهم، فعاقبه الله بأن أصابه مرض جوع مُرعب فكان يأكل ولا يشبع، وبحرارة داخلية هائلة، وبتقرّحات معويّة، وبصعوبة في التنفس، وألم شديد في القولون، وانتفاخ في رجليه وبطنه، وخرجت ديدان من أعضائه، وانبعثت منه روائح كريهة جداً، وتشنُّج في كل عضو من أعضاء جسده، وعند اقتراب موته كان في سجونه أسرى من اليهود، وحتىَ لا يفرحوا بموته أمر بقتلهم قائلاً "على كل بيت في يهوذا أن يبكي عليَ حتىَ ولو كان ذلك غصباً عنه" .

عندما أفاق يوسف من نومه فعل كما أمره ملاك الرب "أخذ الصبيَ وأمّه ليلاً وانصرف إلى مصر" (مت ٢: ١٤) وكانت العذراء راكبة على حمار تحمل ابنها بين ذراعيها ويوسف يسير في الأمام يقود الحمار في الطريق إلى مصر من فلسطين إلى دير المحرَق في مصر العليا . وقد سلكت العائلة المقدسة الطريق الأقلّ خطراً الممتدة من اليهودية شمالاً إلى مصر في الجنوب الغربي مارّة على الطريق البحري في مدن عسقلان، غزة، خان يونس، رفح، العريش وكانت تشكل حدوداً طبيعية بين فلسطين ومصر ثم الى مدينة (الفرما) وكانت ميناءً هاماً ومدخلاً الى مصر، وهي المحطة الأخيرة التي حلَّت فيها العائلة المقدسة في سيناء قبل دخولها وادي النيل، ثم عبرت العائلة المقدّسة برزخ السويس الضيَق في القنطرة ويُعتقد بأن هذه هي الطريق نفسها التي سلكها إبراهيم ويعقوب وأولادهم، وهكذا دخلت العائلة المقدّسة دلتا النيل، وكانت أول مدينة زارتها (تل بسطا) وهي مدينة تقع على بعد كيلو مترين جنوب الزقازيق، وحالما دخل يسوع هذه المدينة سقطت التماثيل وتحطّمت، فخاف سكّان المدينة ورفضوا استقبالها .

تشير المصادر الأبوكريفية إلى وقوع حادث في هذه المنطقة الصحراوية، إذ كانت سبسطه أو (تل بسطا) تعجّ بعصابات اللصوص وقاطعي الطرق، وبينما كانت العائلة المقدّسة تعبر هذه المنطقة تحت جنح الظلام قابلهم في الطريق لصّين يُدعيان (ديماس وجستاس) أفاقوا من نومهم فأوقف ديماس العائلة واتجهّ إلى العذراء ليرى ماذا تحمل على صدرها، ولمّا رأى الطفل تعجّب من جماله وقال "لو أن الله أخذ جسداً إنسانيا لما كان أجمل من هذا الصبيّ" ثم التفت إلى (جستاس) وقال له "أتوسّل إليك أن تدع هؤلاء الناس يمروّا بسلام، ولا توقظ رفقائنا حتى لا يروهم" فلم يوافق جستاس على ذلك، فقال له ديماس: "سأعطيك أربعين درهماً إن أنت سكتَ، وخُذ حزامي عربوناً لذلك" فوافق جستاس وأخذ الحزام شريطة الاّ يتفوّه بكلمة أو يعمل ضجّة . عندئذٍ التفتت السيّدة والدة الإله إلى ديماس شاكرة له فعله، وقالت له "إن طفلي سيكافئك لأنك حافظت على حياته هذا اليوم . سيضعك الرب الإله على يمينه ويمنحك عفواً عن كل خطاياك"، وبعد ثلاثين سنة من هذا الحادث وعند صلب ابنها وإلهها صُلب معه هذان اللصان، وعلّق ديماس على يمين المسيح وجستاس على شماله، واعترف (ديماس) بخطاياه وتاب وهو على الصليب عندما قال: "وأمّا هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله . وقال: "اذكرني يا ربّ متى جئت في ملكوتك"، فقال له يسوع: "الحقّ أقول لك إنّك اليوم تكون معي في الفردوس" (لو٢٣: ٤١-٤٣) .

تركوا هذه المنطقة وذهبوا وخيّموا تحت ظل شجرة لعدة أيام، هناك أخرج يسوع نبع ماء عذب أحممته العذراء من مياهه وغسلت ملابسه الطاهرة، ودُعى هذا المكان باسم "المحمّة" ومن المحمّة ذهبوا إلى مدينة بلبيس وفيها استظلّت العائلة المقدّسة تحت شجرة عُرفت "بشجرة

العذراء مريم" ومن بلبيس رحلت العائلة المقدّسة إلى بلدة منية جناح وهي حالياً "منية سمنود" التي تقع على فرع النيل الدمياطي، وتقول التقاليد المحلية بان كنيسة أبانوب الحالية قد بنيت على أنقاض كنيسة قديمة حملت اسم العذراء مريم، ومن هناك عبروا فرع نهر النيل باتجاه الغرب ونزلوا في مدينة البُرلس وعبروا النيل إلى الضفة الغربية، ومكثوا عدة أيّام في مدينة سخا وتبعد حوالي كيلو مترين جنوب كفر الشيخ، وهناك عطشوا ولم يجدوا ماء، فوضع يسوع قدمه المباركة على حجر حيث ترك كعبه أثراً مطبوعاً على الحجر فنبع الماء وأصبحت هذه المدينة تعرف باسم "بيخا إيسوس" وتفسيره "كعب يسوع" وهي مدينة "سخا" حالياً إحدى ضواحي مدينة كفر الشيخ .

إستمرت العائلة المقدّسة في رحلتها بعد "بيخا إيسوس" فوصلت إلى وادي النطرون ويسمى "الإسقيط" أيضاً ويُقال إن يسوع بارك هذا الوادي والصحراء المحيطة به، فتحقّقت هذه البَرَكة إذ أصبح يعجّ بالأديرة والكنائس يعمرّها آلاف الرهبان والنسّاك يخدمون الله ليلاً ونهاراً .

ثم اتجهت العائلة المقدّسة إلى الجنوب، وسلكت طريق الأهرام الحالي إلى شاطىء النيل بالجيزة حيث عبرت منها الى الضفة الغربية للنيل في مركب، واتجهت شرقاً حتى وصلت إلى منطقة عين شمس وفي الكتاب المقدّس "مدينة الشمس" (إش١٩:١٨) في اليونانية هليوبوليس "HELIOPOLIS" وتُعرف الآن "بالمَطَرية" وتقع شمال جنوب القاهرة وقرب القرية وجدوا شجرة جمّيز(١)، فذهب يوسف إلى القرية، وجلست

---

١ – هذا النوع من الشجر يرتفع إلى حوالي ستين قدما .

العذراء تحت الشجرة لتستريح من عناء السفر إذ كانت متعبة جداً من حرّ الصحراء، أحنَت هذه الشجرة رأسها إلى الأرض لتظلّل العذراء وطفلها، ثم بأعجوبة انفجر نبع ماء تحت الشجرة، فغسلت العذراء ملابس الطفل يسوع من ذلك الماء ورشّت الماء حول المكان وبأعجوبة أخرى نمت شجرة تحمل بلسماً، وهناك تقليد قديم يقول . أنه عندما غسلت العذراء ملابس يسوع وعلّقتها لتجفّ مرَّ من تحتها طفل به روح نجس فوقعت منها نقطة ماء على رأسه فخرج الروح النجس من فمه على شكل أفاعي وغربان وهرب، فشفي الطفل .

ومن منطقة المطرية وعين شمس سارت العائلة المقدّسة الى المنطقة المعروفة ببابليون، (مصر القديمة) فمرّت بمنطقة الزيتون ومكثت فيها عدة أيام .

استمرت العائلة المقدّسة في سفرها فأخذت مركباً للإبحار جنوباً من بلدة بهنسا إلى بلدة سمالوط وبعد مسافة خمسة وثلاثين كيلومتراً من الموقع، قطعوا إلى الجانب الشرقي من النهر وتوقفوا عند بلدة جبل الطير، وقد ورد في التواتر والتقليد المحلّي بأنه بينما كانت العائلة تعبر من القرب من هذا الجبل كادت صخرة ضخمة جداً أن تسقط على القارب، فخافت العذراء القدّيسة ولكن يسوع مدَّ يده ومنع الصخرة من السقوط، وبقيت آثار يده الشمال على الصخرة ومنذ ذلك الوقت أصبح يُعرف هذا الجبل باسم "جبل الكفّ"، وقد بنت القدّيسة هيلانة أم القدّيس قسطنطين الكبير كنيسة عُرفت باسم "سيّدة الكفّ" ولا زال الناس يحجّون ويصعدون إليها بـ (١٦٦) مائة وستة وستون درجة على وجه الصخرة، عندما وصلت العائلة إلى مدينة هيرموبوليس (الأشمونين حالياً) كانت تعبة من عناء الرحلة الطويلة، ذهبت لتستريح

تحت شجرة طويلة لا ظلَ لها تُدعى "بيرسي" كان أهالي المنطقة يعبدونها اعتقاداً منهم بوجود قوة مقدّسة تسكنها والحقيقة أن روحاً شريرة كانت تسكن فيها، وحالما اقتربت منها العائلة اهتزت الشجرة وفزعت الروح الشريرة من حضور المسيح الطفل وهربت، ثم أحنت الشجرة رأسها إلى الأسفل وعملت ظلاً لها واستراحت تحتها، ومنذ ذلك الوقت نالت الشجرة قوة عجائبية من الرب يسوع، واصبحت تشفي كل مرض . كما ويقول المؤرخ سوزومن (القرن الرابع الميلادي) أنه كان يوجد في هيرموبوليس شجرة نخل ضخمة كانت جذوعها، أوراقها أو أي جزء من قشرتها تشفي من الأمراض حتى ولو بلمسها من المريض، ويعيد المصريون قصة هذه الشجرة إلى هروب يوسف والمسيح والعذراء من اضطهاد هيرودس عندما وصلوا إلى هيرموبوليس . عندما دخلوا البوّابة إنحنت هذه الشجرة الكبيرة إلى الأرض مقدّمة مأوى وظلاً لها .

عندما أصبحت العائلة المقدّسة في منطقة هيرموبوليس (الأشمونين) دخلت إلى مدينة تُدعى سوترينا، ولم تكن تعرف أحداً يستضيفها، لذلك ذهبت إلى المعبد الذي يُدعى (هيكل مصر) حيث يوجد ٣٦٥ صنماً، يُقدَم فيها كل يوم من أيام السنة إلى أحد هذه الاصنام مراسيم مقدّسة على شرفه، وعندما دخلت العذراء هذا الهيكل مع ابنها سقطت جميع الأصنام وتكسّرت وتناثرت قطعاً على الأرض، وعندما سمع أفردوسيوس حاكم المدينة ذهب مع جنده الى الهيكل، فاعتقد كهنة المعبد انه آت لينتقم من أولئك الذين كانوا سبباً في تحطّمها، وعندما دخل الحاكم المعبد ورأى الآلهة ساقطة ومتناثرة، ذهب إلى المباركة مريم التي كانت تحمل ابنها، وقدَم له كل الاكرام والتفت إلى جنده وأصدقائه وقال لهم : "لو لم يكن هذا هو إله آلهتنا، لم يسقُط آلهتنا على وجوههم أمامه"

وبسكوتهم وعـدم إجابتهم اعترفوا به ربّاً لهم . وكذلك نحن إن لم نعترف به، نخاطر في الوقوع تحت غضبه ونهلك، كما حصل مع فرعون الذي لم يؤمن بقوته القادرة فغرق مع جيشه، وهكذا آمن جميع سكان تلك المدينـة بالربّ الإله .

وبعد أن مكثت العائلة المقدّسة عدة أيّام ذهبت إلى مدينة القوصيـة (كانت تسمى مدينة قسقام) وعندما وصلت العائلة المقدّسـة إلـى بوابـة المدينة سقط صنم ضخم، وتحطم أمام جلال الرب يسوع المسيح، وهددّت الشياطين التي كانت في الوثن المحطم كهنة المعبد قائلين "لا تدعو المـرأة والطفل والشيخ يدخلون المدينة لأنهم سيقضون علـى خدمتكـم وسـنترك المدينة" فخرجوا بالعصي والفؤوس ليضربوهـم . فهـربت العائلـة المقدّسة واتجهت نحو قرية (ميرة)، وهي (مير) حالياً، ومنها إلى جبـل قسقام حيث يوجد "دير المحرّق" وهو من أهم المحطّات التي استقرت فيـها العائلة المقدّسة ويشتهر هذا الدير باسم "دير العذراء مريم".

وقد صنع الرب يسوع عجائب كثيرة في كل قرية دخلـها محمـولاً على ذراعي أمّه، فكانت الأصنام تتكسّر والأمـراض تُشفى، فقد شُفيت أمـرأة في مـدينة سنابو سكنها الشيطان، إذ كانت تسير عاريـة في الشوارع وتهـرب إلى القبور وتقـذف الناس بالحجارة، وعندمـا رأتـها السيّدة العذراء رثت لحالها، وخرج منها الشـيطان صارخـاً "ويـل لـي، بسببك أنت وابنك يا عذراء" وعادت المرأة إلى طبيعتها خجلة من نفسـها، وعادت إلى أهلها وأخبرت أقاربها بما حدث لها، فاستقبلت العائلة المقدّسة بكل إجلال وإكرام .

أشتهر دخول المسيح إلى مصر بسقوط الأصنام وتحطّمها في جميـع أنحاء البلاد، وانهزام الشياطين، وبذلك تمّت نبؤة إشعياء "هـوذا الـربّ

راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه" (إش١٩: ١) كما تمّت نبوءة إرميا الذي عاش في مصر بعد أن أخذه اليهود معهم عنوة إلى مصر. وعاش هناك أربع سنوات تنبأ خلالها إلى الكهنة الوثنيين، بأن أصنامهم ستقع وتهلك عندما تدخل مصر أم عذراء مع طفل وُلد في مذود، وبعد رجمه من قبل شعبه، عظّمه الشعب المصري وأكرموه كصانع عجائب بعد موته، ورسم الكهنة المصريين نبوءته في هياكلهم وذلك بأن رسموا صورة لعذراء ترقد في الفراش وطفل ملفوف بالأربطة مضجع في مذود بقربها . وبعدها بسنوات كثيرة سأل الملك (بتلمو)، عن هذه الصورة فاجأبوه بأن هذا سرٌ سبق وأن تنبأ به أحد اليهود لآبائنا ونحن بانتظار إتمامه .

وكانت هذه آخر نقطة وصلت إليها العائلة المقدّسة في رحلتها، هناك ظهر ملاك الرب في حلم ليوسف في مصر قائلاً "قم وخذ الصبيَ وأمّه واذهب الى أرض اسرائيل . لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبيَ" (مت٢: ١٩ - ٢٠)، وترجح بعض المصادر الكنسية والتاريخية أن العائلة المقدّسة قد توجّهت إلى ميناء أسيوط - على النيل - الى موقع دير العذراء الحالي بجبل "درنكة" ومنه بدأت رحلة العودة سالكة نفس الطريق السابق إلى أن وصلت مدينة الناصرة .

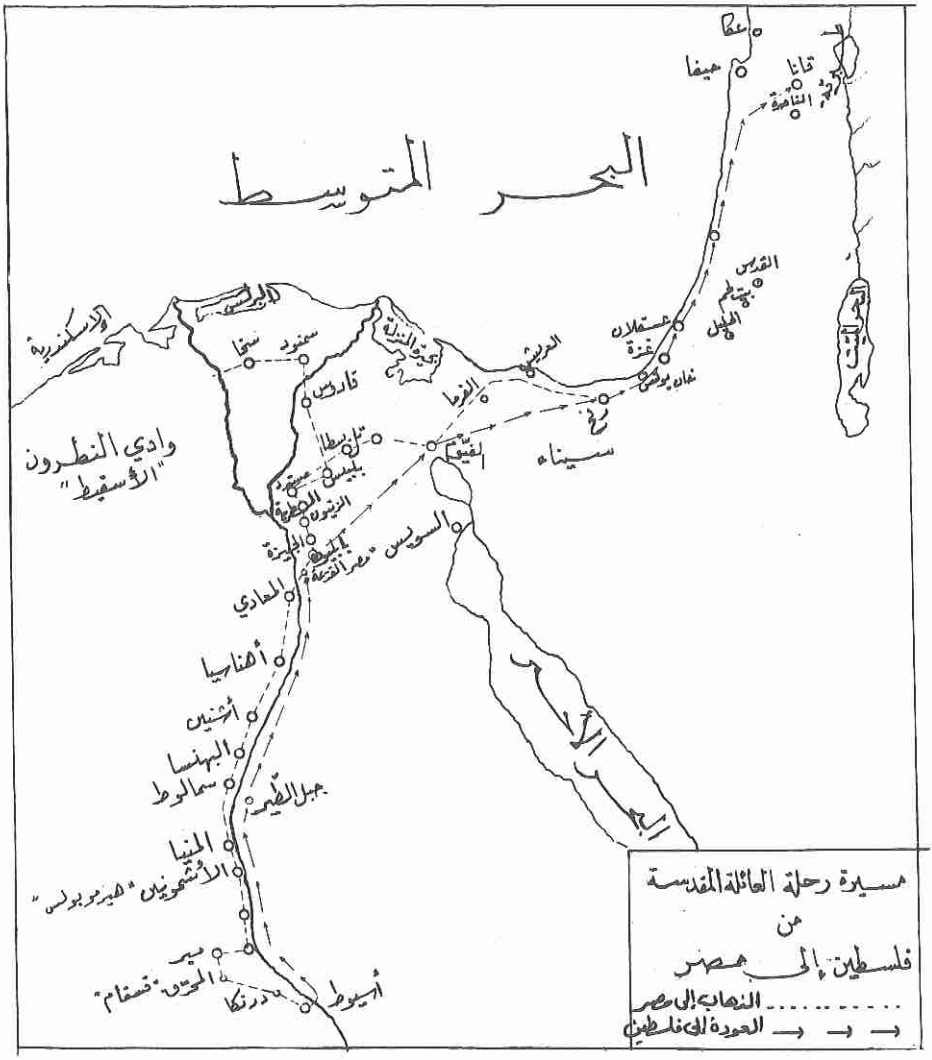
البحر المتوسط
عكا
حيفا
قانا
الناصرة
القدس
بيت لحم
الخليل
عسقلان
غزة
خان يونس
العريش
رفح
سيناء
الفرما
القنطرة
السويس
البحر الأحمر
البرلس
الإسكندرية
سخا
سمنود
قادوس
تل بسطا
بلبيس
الزقازيق
المطرية
القاهرة
الجيزة
أبو النمرس
المعادي
أهناسيا
أشمنين
البهنسا
سمالوط
جبل الطير
المنيا
الأشمونين "هرموبوليس"
دير المحرق "قصقام"
درنكا
أسيوط
وادي النطرون "الأسقيط"
مسيرة رحلة العائلة المقدسة
من
فلسطين إلى مصر
الذهاب إلى مصر
العودة الى فلسطين

عودة العائلة المقدّسة من مصر

"فلمّا مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً . قُم خُذ الصبيَ وأمّه واذهب إلى أرض إسرائيل . لأنّه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبيّ" (مت ٢:١٩ - ٢٠) .

هكذا بعد أن عاشت ثلاث سنوات في مصر حتى موت هيرودس تمت النبوّة عن الرب "من مصر دعوتُ ابني" (مت ٢:١٥) .

لم يعُد المسيح إلى الناصرة إلى أن توفي هيرودس، ووفقاً لتقليد الكنيسة التجأت العائلة المقدّسة مدة ثلاث سنوات، وحسب بردية أثرية ترجع الى القرن الرابع الميلادي نشرتها جامعة "كولون" بالمانيا في عام ١٩٩٨، تؤكد أن مدة إقامة العائلة المقدّسة في مصر كانت ثلاث سنوات وأحد عشر شهراً .

سلكت العائلة المقدّسة في عودتها إلى فلسطين نفس الطريق التي سلكتها في ذهابها إلى مصر، وفي طريق عودتها زارت الأماكن التي قطنتها في ذهابها على طول شاطيء البحر المتوسط ومكثت عدة أيام في مدينة غزة .

من تخوم مصر، قام يوسف وأخذ الصبيَ وأمه وجاء إلى أرض إسرائيل . ولكنه لمّا سمع أنّ أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضاً عن هيرودس أبيه خاف أن يذهب إلى هناك، وإذ أُوحي إليه في حلم انصرف إلى نواحي الجليل . وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة . لكي يتمّ ما قيل بالأنبياء إنّه سيُدعى ناصرياً" (مت ٢:٢١ - ٢٣) وأقامت العائلة المقدّسة في الناصرة وعاد يوسف إلى عمله السابق في مهنة

النجارة "وكان الصبيّ ينمو ويتقوّى بالروح ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه" (لو٢: ٤٠) .

هكذا عادت العائلة المقدّسة إلى الناصرة وأقامت فيها، وكان يوسف يعمل بيديه في بناء البيوت وعمل الأثاث وأدوات البيوت، وقيل إن نجّار الناصرة كان يعمل في الاخشاب "محاريث وفدادين" لم تكن هذه المهنة تحطّ من قدره، وكان يسوع يعمل معه حتى كان يُدعى "ابن النجار" (مت١٣: ٥٥)، يؤكد عمل يسوع في النجارة تجسّده، ويؤكد بذلك شرف وكرامة العامل المنتج، فالواجب على كل إنسان أن يعمل بيديه ليعيل نفسه وعائلته، وكان المجتمع يحتقر من ليس له صناعة ولا يعيل نفسه، فبولس الرسول الذي كان يصنع الخيام، قال : "إن كان أحد لا يُعيل أهل بيته "فقد أنكر الإيمان وهو شرٌّ من غير المؤمن" (١تيم٥: ٨) .

كانت تقع على الأب تجاه ابنه حسب التقاليد اليهودية مسؤوليات عدّة فبالإضافة إلى تعليم ابنه الشريعة من السنة الثالثة من عمره، عليه أن يختنه (تك١٧: ١٢)، وأن يفتديه من الله (عد١٨: ١٥ - ١٦) وأن يعلّم الصبيّ صنعة. ومع أن يوسف لم يكن والد الصبيّ فقد قام بكل ما تتطلبه الشريعة، ومن المحتمل جداً انه قد علّمه مهنة النجارة لانه دُعي نجاراً أيضاً (مر٦: ٣)، وقد فرض الله على ذكور اليهود الاجتماع أمام الرب في مكان للعبادة ثلاث مرات في السنة (خر٢٣: ١٧) و(تث١٦: ١٦ - ١٧) في الأعياد الثلاثة العظيمة: عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال، كانت مريم تصطحب يوسف مع الطفل في ذهابهم إلى أورشليم، وكانت الاحتفالات تتركّز في الهيكل الذي يؤمّه الحجّاج من جميع أنحاء فلسطين والأمبراطورية.

"وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أُورشليم في عيد الفصح . ولمّا

كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد . وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبيَ يسوع في أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما" (لو٢: ٤١-٤٣) .

كانت مدة الاحتفال في عيد الفصح ثلاثة أيام، وكان أول يومين منها الزامياً وواجب الحضور في الهيكل، أمّا اليوم الثالث فلم يكن إلزامياً وباستطاعة أي فرد المغادرة إذا رغب في ذلك . رجع يوسف ومريم وبقي يسوع في الهيكل بين شيوخ وعلماء إسرائيل يسألهم ويجيبهم، وحسب المصادر الأبوكريفية إن يسوع سأل اليهود "إبن من يكون مسيا (المسيح) ؟ فأجابوه "ابن داود" فقال لهم "لماذا إذاً يدعوه رباً، عندما قال "قال الربُ لربيَ إجلس عن يميني حتىَ أضع أعداءك موطئاً لقدميك" (مز ١١٠: ١) فسأله أكبر العلماء . هل قرأت الكتب ؟ فأجاب لقد قرأتها، ثم بدأ بتفسير ما جاء بكتب الشريعة وتفسير الأسرار التي وردت في كتب الأنبياء بشكل لم يسمع به أحداً من قبل، حينئذ التفت كبير العلماء إلى الشيوخ وقال "لم أسمع مثل هذا ولا معرفة كهذه من تظنون هذا الصبيَ يكون .؟"

كتب القدّيس أبيفانيوس (٣١٥م-٤٠٣م) "كان بعد إثنتي عشر سنة وليس بعد ثلاثين سنة، أن المسيح أدهش الجميع بقوة وكليَة معرفته "ووفقاً لهذا لا يجوز مطلقاً أن يُقال إنه بعد حلول الروح القدس عليه أصبح المسيح، ولكن منذ طفولته عرف هيكله وأبوته للجميع" .

ظنّ يوسف ومريم أن يسوع "بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف . ولمّا لم يجداه رجَعا إلى أورشليم يطلبانه" (لو٢: ٤٤-٤٥)، هنا ربما يتساءل البعض ويقول : "كيف يمكن للعذراء ويوسف أن ينسيا ابن الله ويتركانه خلفهما، ثم يعودا ليفتشا عليه بكل هذا الاهتمام ؟"

والجواب . إن العائلات التي كانت تصعد من أُورشليم وتعود إليها

للاحتفال بالعيد كانت كبيرة، ولذلك كان يسافر الرجال مع بعض والنساء مع بعض، والاطفال يعودون مع أحد الأبوين ولهذا كان مريم ويوسف يظنّان أن يسوع مع واحد منهم .

"وبعد ثلاثة أيّام وجداه في الهيكل جالساً في وسط المعلّمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بُهتوا من فهمه وأجوبته" (لو٢:٤٦ - ٤٧)، بُهتوا من غور معرفته بالكتاب المقدّس لأنهم كانوا يعرفون جيداً إنه لم يتعلّم عند أي أحد منهم، وكان يعلّمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة والفريسيين.

ومع أنه كان قد بلغ سن التمييز وهو الثانية عشر من عمره البشري، لم يخف حكمته . وهذا مثالاً لأطفالنا إذ يجب عليهم الاستماع للشيوخ وكبار السن ويأخذوا بعلمهم . وهنا حقيقة كان يسوع يسأل ليس ليتعلّم منهم لكن بسؤاله يرشدهم لأنه يسأل ويجيب بحكمة لأنه هو نبع المعرفة .

"فلمّا أبصراه اندهشا . وقالت له أمّه يا بُنيَّ لماذا فعلت بنا هكذا . هوذا أبوك وأنا كنّا نطلبك معذّبين" (لو٢:٤٨) إنّ كلمة أبوك، لا تعني أبوة جسدية عندما تتعلّق بيوسف أبداً، ويقول القديس كيرلّس الاسكندري (٤٤٤م) "إن العذراء كانت بالتأكيد تعرف إن يسوع لم يكن ابن يوسف ولكن تقول هذا تجنّباً لشكوك اليهود" "فقال لهما : "لماذا كنتما تطلباني، ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي"، فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما."(لو٢:٤٩ - ٥٠)، هو لم يوبّخهما لأنهما فتّشا عليه كإبن، ولكن أجبرهما على رفع أعينهما العقلية ما يجب أن يؤدى له وهو الابن الازليّ، ولم يفهما الكلام الذي قاله لأنه تكلّم بلاهوته، ويبين بوضوح من هو أباه الحقيقي "ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما" (لو٢:٥١)

وهذا يؤكد بأن يسوع كان مُطيعاً لوالديه منذ بكورة عمره، كان متواضعا ويعمل كل يُوكل إليه من الأعمال الجسدية، أطاع من عملها بيديه، وأطاع المسمّى أبيه يوسف البار فلا عجب إن هو أطاع الله . وكانت العذراء تحفظ كل ما كان يقوله ويعمله في قلبها، وكانت تنتظر أن ينكشف لها بوضوح كل ما تحفظه، لم ترغب أن تكشف لأحد أسرار المسيح التي عرفتها وانتظرت الوقت المناسب لكشفها.

"وأمّا يسوع فكان يتقدّم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس" (لو٢:٥٢) . إن كلمة الله المتجسّد كان ينمو ويتقوى بالجسد كإنسان، وقد عرف سنين الطفولة والمراهقة والشباب، ولكنه لم يكن ينمو كإله ؛ لأنه كان كاملاً مثل أبيه. ككلمة الله لم يصبح أكثر حكمة ولكنّه كشف عن حكمته تدريجياً حسب نموه الجسدي حتى إنهم رأوه وسمعوه كأنه ينمو في الحكمة كل يوم .

ومن هذا الوقت بقي يسوع مع والديه في الناصرة . كان مطيعاً لهما مدة ثمانية عشر عاماً، وربما كانت مريم ويوسف خلال هذه المدة يسمعان من فمه أسرار الملكوت .

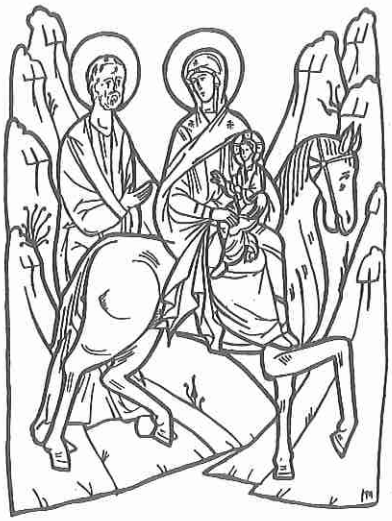

رقاد يوسف الشيخ البار

تحتفل بعيده الكنيسة في الأحد الأول بعد ميلاد المسيح

كان يوسف البار من نسل الملك داود، عاش وقد تنقّت روحه وسمت بمعرفة الكتب المقدسة التي عاش حياته بموجب تعاليمها . ومع أنه لم يكن له علاقة بتجسُّد الرب يسوع المسيح، أُختير خطيباً للعذراء وأن يُدعى أبي الرب، تمّم جميع واجبات الأب تجاه الابن : دُعى اسمه يسوع (مت١:٢٥)، خَتَنه ودفع عنه الفداء كأوّل مولود بكر، هرب معه ومع أمّه إلى مصر، ثم اختار الناصرة مكاناً لإقامتهم . وفي الناصرة عاد يوسف لعمله في النجارة وكان يكسب من تعب يديه ويُخبرنا التقليد الكنسي إن الرب نفسه عمل معه كنجّار .

وقد كان ليوسف اولاداً وبناتاً من زوجته (صالومي)، وعند رقاده كان جميع أخوة وأخوات يسوع من يوسف قد تزوجوا ويقيمون في بيوت خاصة بهم وهذا يشمل ابنته المدعوّة أيضاً (صالومي) التي كانت قد تزوجت من (زبدى) ولها ولدان هما يعقوب ويوحنا "اولاد الرعد" والذين أصبحا فيما بعد رسلاً للمسيح، أما يهوذا ويعقوب إخوة المسيح من يوسف فبقيا يقيمان في المنزل، وقد جاء في التقليد أن إخوة يسوع من يوسف لم يُؤمنوا به في بداية بشارته ما عدا يعقوب الذي دُعي "أخو الرب" وأصبح فيما بعد أوّل أساقفة أورشليم، وأمّا يهوذا الذي لم يقبل المسيح أولاً لأنه لم يكن أخاً له من أمّه، ثم تاب وآمن به وأصبح من رسله وشعر إنه غير مستحق لأن يُدعى أخي الرب، فدُعي "أخو يعقوب" .

يصف الكتاب الأبوكريفي "تاريخ يوسف" من القرن الرابع الميلادي أواخر سنَي حياة يوسف فيقول : "أصبح يوسف شيخاً متقدّماً في السن، ولم يشعر بضعف في جسده، ولم يضعف نظره ولم يسقط أي من أسنانه، كان عقله وتفكيره سليمين وكشاب كان يؤدي عمله ولكنه كان قد بلغ من العمر عتياً."

عندما شعر يوسف أن وقته قد قَرُب، ذهب إلى أورشليم ودخل هيكل الرب وصلّى أمام قدس الأقداس، وتضرّع إلى الله أن يرسل له رئيس الملائكة ميخائيل ليبقى معه أثناء انفصال روحه عن الجسد، وطلب مغفرة خطاياه ورحمة الله عليه، ثم عاد إلى الناصرة حيث مرض ولزم الفراش . وحسب تقليد قديم يعود إلى أيّام الرسل. سمع يسوع نفسه اعتراف هذا الرجل البار عن كل ما عمله في حياته، فدنا من فِراشه وقاله له : "تحية يا أبي يوسف، أيّها الرجل البار" فاجابه يوسف : "تحيّة يا ولدي الحبيب، إن شبح الموت والخوف منه يحيط بي. ولكن عندما سمعت صوتك، هدأت نفسي، يا يسوع الناصري، يا يسوع مخلِّصي، يا يسوع حمايتي، يا يسوع أحلى اسم على فمي وعلى فم كل محبيِّك، أيها العين التي ترى، والأذن التي تسمع، إسمعني . أنا خادمك، في هذا اليوم وبكل تواضع أقدِّم لك الطاعة، وأسكب أمام وجهك دموعي لأنك أنت إلهي ."

أغلق يسوع عينيَ المدعو أبيه ودفنه في المقبرة الملكية في وادي يهوشافاط قرب أورشليم وبكى عليه . وصعدت روح يوسف بهدوء وسلام لتشهد وتبشِّر أسلافها بالمسيح الذي انتظرته طويلاً . عاش يوسف الشيخ مائة وعشر سنوات ورقد قبل أن يبدأ يسوع عمله التبشيري . أجمل متىَ الإنجيلي حياة وفضائل يوسف الشيخ بجملة : "كان رجلاً باراً" .

عُرس قانا الجليل

إن حضور المسيح لعرس قانا الجليل لم يكن صدفة وإنّما بنعمة سر خاصة ؛ أتى إلى زواج يحُتفل به على الأرض، أتى من السماء إلى الأرض لكي يضمّ الكنيسة لنفسه بحب روحي . حُجرة العريس كانت أحشاء والدة الإله، حيث رافق الطبيعة الإنسانية وصار كعريس ليضمّ لنفسه الكنيسة . نستنتج من هذه البادرة الأُولى للسيِّد عدة ملاحظات : العُرس المكرَّم تقدَّس، واللعنة التي على النساء رُفعت، لأن المسيح هو بدء مجيئنا إلى الحياة . ولأجل مباركة بدء وجودنا بارك هو نفسه الزواج، وحضره عندما دُعي إلى قانا الجليل مع رسله القدِّيسين، أتى لا ليشترك في وليمة الزواج فقط ، بل ليعمل عجيبته حتى يتمكَّن من تقديس بدء الجنس البشري فيما يتعلّق بالجسد أيضا.

"وفي اليوم الثالث كان عُرسٌ في قانا الجليل وكانت أمّ يسوع هناك. ودُعى أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العُرس" (يو٢:١ - ٢) .

نلاحظ بأن يوسف لم يُذكر في الدعوة لأنه كان قد رَقد قبل العرس . وقد جاء في التواتر أن العُرس كان لسمعان القاناوي (الغيور) الذي أصبح فيما بعد تلميذاً للمسيح، وهو نسيب العذراء مريم ومن عائلة غير غنيّه، فانتبهت العذراء إلى قلق العريس لان الخمر عندهم قد نَفذ، فحزنت لقلقه وتوجهت إلى ابنها متوسلة، "قالت أمّ يسوع له ليس لهم خمر" (يو٢:٣) لكن أرجوك يا بنيَّ أظهر إنك تستطيع عمل أي شيء، أنت الذي

خلقت بحكمتك كل الأشياء . لقد أُختير عُرس قانا ليُظهر لنا شفقة والـــدة الإله على الناس الذين يدعونها فتشفع فيهم . هنا تأخذ الأم زمام المبادرة. إن ذكر نفاذ الخمر فقط جعَلها وسيطة بين الإبن والعريس متجاوزة بذلـــك رئيس الخدم والخدم، وكأنني بلسان العـذراء تقـــول : إسمعـــوا، يـــا أصدقائي، انتبهوا واعرفوا السرّ، رأيت ابني يعمـــل عجـــائب حتـــى قبل هـــذه العجيبة، ســـوف أُظهـــر الآن مـــن الأعمال التـــي أعرفـــها . لأنني أعرف بأنه لم يكن لي زوجاً، ومع هذا حملت ابناً رغماً عن قوانيـــن الطبيعة، وأعرف إنني بقيت عذراء بعد الولادة. سمعت أليصابات تدعوني أُمَ الرب (لو١:٤٣) قبل الولادة الحقيقية وبعد الـــولادة مجّدنـــي وبـــاركني سمعان (لو٢:٢٥ - ٣٥) وحيّتني حنّة بفرح، المجوس أسرعوا من بـــلاد فارس للمولود الجديد منّي، ونجم سماويّ أعلن عـــن الميـــلاد مقدمـــاً . الملائكة والرعاة فرحوا والخليقة كلّها فَرحت معهم . ماذا أقـــدر أن أطلـــب أعظم من هذه الأعاجيب .

"قال لها يسوع ما لي ولكِ يا امرأة. لم تأت ساعتي بعد" (يـــو٢:٤). مع إنّ كلمة امرأة تظهر وكأن بها عدم احترام، إلاّ أنها لم تكـــن غريبـــة عن الاستعمال في الشرق القديم . كلمة امرأة في الشرق كـــانت تُســـتعمل للإجلال والاحترام وليس كما نستعملها نحن اليوم . في التراجيديا اليونانية كانت هذه الكلمة تُستعمل في مخاطبة الملكات والنساء المتميّزات . وفـــي هذا الإنجيل استعملها يسوع مرة ثانية وهو على الصليب في مخاطبته لأمّه وإيكالها لتلميذه المحبوب يوحنّا (يو١٩:٢٦)، هذه الكلمات لم تكن رفضـــاً مهيناً لأمّه، والعذراء متيّقنة بشفقة ابنها حتى انها لم تَعُدَّ كلامـــه رفضـــاً لتوسّلها وبهذا اليقين قالت للخدام "مهما قال لكم فافعلوه" (يو٢:٥) .

إنّ كلمة "امرأة" كان اسم أول إمرأة حوّاء . لان آدم قال "هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تُدعى امرأة" (تك٢:٢٣) فأُمُّ المسيح الآن هي المرأة الجديدة التي وُلد منها آدم الجديد بدون بذرة رجل. عندما قال الله للحيَّة "وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عَقبه" (تك٣:١٥) تكلّم عن نَفسه إنه ذلك النسل، وكما إن حوّاء كانت أمّ كلّ حيّ، كذلك فإن مريم هي المرأة الجديدة، حوّاء الجديدة، أمّ البشرية الجديدة التي استُرجعت بتجسّد الابن الأزليّ، الذي هو الإنسان الجديد الذي سيسحق رأس الحيَّة (الشيطان)، لأنه وفقاً للنبوءة فإن الحيَّة الملعونة ونسلها كانوا حاقدين كثيراً على المرأة، بالمرأة الجديدة ستقع الإهانات والعداوة الموجهة للمرأة على رأس الحيَّة ونسلها مدمّرة قوتها .

يقول القدّيس يوحنا كرونستاد (١٨٢٩م - ١٩٠٨م) "إذا كانت الشياطين ترتعد لمشاهدة الصليب المُعطي الحياة، لأنّ ابن الله قد سمّر على خشبة الصليب وقدّسها بآلامه عليها، فكم ترتعد أكثر أمام سيّدتنا والدة الإله وحتىّ من اسمها الكلّي القداسة ؟ أمّا "لم تأتِ ساعتي بعد" فقد فسّرها بعض الباحثين إنها تعني ساعة بدء عمل العجائب، وأشار بعضهم إلى أنها تمثّل ساعة الجلجثة (الصلب) (يو٢:٢٧) عندما خاطبها مرة أُخرى بقوله لها "امرأة"، أمّا القدّيس يوحنا الذهبي الفم فقد فسّرها بقوله : "لم تأتِ ساعتي بعد" إنه ليس بسبب حاجته إلى الأوقات أو بسبب إنه محكوم بالساعة، ولكن لرغبته ليوضّح إنه يعمل كل الأشياء في أوقات مناسبة .

لقد عرف يسوع مُسبقاً بأن الخمر كادت أن تنفذ، وعرف ما تكنّه

أمَه في قلبها، وأنه وقت لعمل عجيبة ولكنه تأخّر حتى تُدرك أمه هذا، ويُعطيها شرف طلب عمل أوّل أُعجوبة له بخلاف الترتيب الذي وضعه، ولكن لسبب وجوب تكريم الأبناء لوالديهم أطاع أمّه واستجاب لطلبها، فدعت الخدّام ليساعدوه، لم يشأ أن يساعده تلاميذه في التحضير للأعجوبة، حتى لا يدع مجالاً لشكّ أي إنسان في إتمام الأعجوبة، ولذلك دُعي الخدام حتىّ يكونوا شهوداً على كلّ شيء، ويطلبوا هم أيضاً المساعدة لحاجتهم الماسّة للخمر، لأن توسّل المحتاج يجعل الأعجوبة بعيدة عن الشك .

دعت الخدّام وقالت لهم "مهما قال لكم فافعلوه" (يو٢:٥) لم تشأ الكليّة القداسة أن تُركّز على نفسها وتلفت الانتباه إليها، بل طلبت منه وانتظرت مساعدته هو فقط، لم تقل للخدّام "مهما قلت أنا فافعلوه" بل قالت "مهما قال لكم فافعلوه لأن الخلاص، المجد، الكرامة والقوة هي للربّ إلهنا .

كان هناك ستة أجران من حجارة موضوعة هناك للتطهير حسب عادات اليهود، كانت تُستعمل لغسل الأيدي قبل الأكل وبعده، وكذلك لغسل الأواني المستعملة . وكانت فارغة "قال لهم يسوع : "املأوا الأجران ماء ." فملأُوها إلى فوق" (يو٢:٧) وسبب هذا حتىّ لا يَشكّ أحد بأنه قد بقي أي أثر من الخمر في الأجران ثم صبّ الماء حتى يمتزج بها، أشار إلى الأجران ليُري أنه لم يكن يُوجد فيها أي خمر، أمرهم أن يملأُوها حتى يشهدوا إن الذي سوف يحدث ليس خيالاً وإنّما حقيقة .

"فملأوها إلى فوق . ثم قال لهم استقوا الآن وقدِّموا إلى رئيس المتّكأ، فقدَّموا. فلمّا ذاق رئيس المتكأ الماء المتحوّل خمراً ولم يكن يعلم

من أين هي . لكنَّ الخدّام الذين كانوا قد استقوا الماء عَلِموا . دعا رئيس المتكأ العريس وقال له . كلُّ إنسان إنمّا يضع الخمر الجيِّدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون . أمَّا أنت فقد أبقيتَ الخمر الجيِّدة إلى الآن" (يو٢:٧ - ١٠)، كان رئيس المتكأ هو الرئيس الذي يُعطي رأيه في الخمر الذي يُقدَّم، ويراقب أن كلّ شيء يسير بشكله الصحيح في الأحتفال" ولهذا جعله المسيح شاهداً على الخمر .

عندما حوَّل المسيح بقوته الماء إلى خمر، فرح جميع الشعب لأنهم ذاقوا جودة الخمر، أمَّا نحن الآن فنشترك في حفل الكنيسة لأن الخمر يتحوّل إلى دم المسيح ونشرب منه بفرح ممجدّين العريس الأعظم، لانه هو العريس الحقيقي ابن مريم، الكلمة الأزلي الذي أخذ شكل خادم . هو الذي بحكمته خلق كل الأشياء. هذه كانت بدء أعاجيب السيِّد التي تتالت مُظهراً مجده، وآمن به تلاميذه، ثم رجع يسوع إلى الجليل وكان يعلِّم في المجامع ويبشِّر الخطاة لخلاصهم (مت٩:١١، ١١:١٩، لو١٩:٧) . كان المجمع في ذلك الوقت مركز الحياة الاجتماعية والدينية، وفي كل بيت كانت تُقْرأ فيه التوراة، وتُقام الصلوات عوضاً عن الأضاحي . كانت الصلوات تشمل قراءة كتب الشريعة، والأنبياء، "جاء إلى الناصرة حيث كان قد تربّى ودخل المجمع كعادته يوم السبت وقام ليقرأ فدُفع إليه سفر إشعياءَ النبي . ولمَّا فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه : "روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأُبشر المساكين أرسلني لأشفي المنكسريّ القلوب لأُنادي للمأسورين بالإطلاق وللعُمي بالبصر وأرسل المنسحقين في الحريّة . وأكرز بسنة الرب المقبولة" (لو٤:١٦ - ١٩) ثم طوى السفر وقال "إنّه اليوم قد تمَّ هذا

المكتوب في مسامعكم" (لو٤: ٢١) وكان الجميع يتعجَّبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ومن حكمته، وقالوا "أليس هذا ابن يوسف" (لو٤: ٢٢) فقال لهم يسوع "إنّه ليس نبيّ مقبولاً في وطنه" (لو٤: ٢٤) وأورد لهم أمثلة من الأنبياء، إيليا (١مل١٧: ٨ – ١٦) وأليشع (٢مل٥: ١ – ١٤) الذين قُبِلوا من الأغراب، فامتلأوا غضباً عليه ولم يؤمنوا به "فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءُوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه إلى أسفل . أما هو فجاز في وسطهم ومضى" (لو٤: ٢٩ – ٣٠) وانحدر إلى كفرناحوم فكان يشفى المرضى، يغفر الخطايا، ويخرج الأرواح النجسة، فحقد عليه الفرّيسيون وأرادوا أن يهلكوه (مر٣: ٦) "ثم أتوا (يسوع وتلاميذه الإثني عشر) إلى بيت. فاجتمع أيضاً جمع حتى لم يقدروا ولا على أكل خبز . ولمّا سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا إنه مختلّ" (مر٣: ١٩ – ٢١) . إنّ كلمة ليمسكوه لا تنطبق مطلقاً على أمّه، لأن العذراء الكلّية القداسة قد شاهدت إتمام كثير من النبوءات في ابنها، وكثيراً من العجائب التي عملها، ولم تكن تؤثّر على سلوكه . ولم تكن تصدِّق إنه مختلّ العقل، وليس بحاجة إلى أن يُربَّط، علماً بأن كثيرين كانوا يريدون ذلك حسداً . نقرأ بأن أقاربه فكرّوا إنه مختلّ والكتبة قالوا "إنّ معه بَعْلزبول . وإنّه برئيس الشياطين يُخرج الشياطين (مر٣: ٢٢) . ولكنّ من المستحيل أن تصدِّق العذراء الأم أنها أنجبت أي شذوذ أو أمتلاك شيطان لابنها . "فجاءَت حينئذ إخوته وأمّه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه . وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له :

"هوذا أُمّك وإخوتك خارجاً يطلبونك" (مر٣: ٣١ – ٣٢) .

بينما كان يسوع يعلِّم طريق الحياة ومملكة الله وكان منهمكاً في شفاء الأجساد والنفوس وصل إخوته، كان تلاميذه حاضرين معه، وكان أقاربه غائبين، وصلوا ولم ينتظروا بل فضّلوا إزعاجه ومناداته لإبعاده عن عمله العظيم . بالحقيقة إن الأشخاص القريبين منه وقفوا بعيداً، بينما الغرباء تعلّقوا بكل كلمة كان يقولها . ومع أنها ممتلئة نعمة، إلاّ أنها لم تعرف تماماً عِظَم خدمة ابنها لأنّ شعورها الطبيعي جَعَلها تهتمّ بما يتعلّق به وحمايته من الأعمال والمخاطر التي تعرَّض لها، كانت تعاضد تعليمه ولم تكن في هذه الحالة ترغب في إزعاجه ولكن الإخوة ضغطوا عليها لمرافقتهم للتفتيش عنه . حتى يُشكّلوا على يسوع ضغطاً لمقابلتهم لما لأمّه دالة كبيرة عليه . كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون منعه، لأنه حسب الشريعة اليهودية فإن للرجل الذي بلغ الثلاثين من عمره أن يفسِّر التوراة في المجمع . الخلاف في عائلة يسوع لم يكن حول العذراء الكلّية القداسة ولكن حول سلوك إخوته الذين قرروا التدخل في تعليمه "لأنّ إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به" (يو ٧:٥) .

"فأجابهم قائلاً من أمّي وإخوتي. ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال : "ها أُمّي وإخوتي . لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي" (مر٣:٣٣ - ٣٥) .

مَن من البشر يستطيع أن يَدَّعى بأنه عمل مشيئة الله ؟ إليست أمّه فقط ؟ وفي نفس الوقت مدركين مدى الاحترام الذي يكنّه اليهود لآبائهم . هو وحده من كل إسرائيل لا يمكن أن يكنّ غير الاحترام لأمّه. هناك معنى أعظم وأبعد لكلماته. مرة ثانية وهو ابن اثني عشر سنة قال لأمّه أنه ينبغي أن يكون فيما لأبيه (لو٢:٤٩)، لا يجب أن يُشكّ ولو للحظة واحدة إنه لم يحترم والدته ولم يحُب أخوته وهو الذي أعطى موسى لوحي الشريعة وقال

"أكرم أباك وأمّك" وكيف يمكن أن يرفض محبة إخوته وهو الذي أمرنا أن نحب ليس أخوتنا فقط بل أعداءَنا أيضاً ؟ فهو يقول "أحبّوا أعداءكم" (مت٥:٤٤، لو٦:٢٧، ٣٥) . إذاً ماذا كان المسيح يريد أن يعلّم بقوله هذا ؟ كان هدفه أن يُسبغ محبته الفائقة على الذين يحنون أعناقهم إلى تعاليمه، ويقول إن كلّ من يسمع كلمته ويعمل بها هو أمّه واخوته، أليس واضحاً إنه يُسبغ نعمته ومحبته على الذين يقبلونها ؟ وحتى إن المسيح يربحنا جميعنا لطاعته، يَعِدنا بالإكرام والمحبة الفائقة فيقول : "أمي واخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها" وهكذا عندما نحني أعناقنا إلى أوامر المخلّص نكون بمثابة أمّه واخوته . وكيف سيعاملنا عند جلوسه على كرسي القضاء ؟ أليس بلطف ومحبة؟ ومن هذا الحادث نصل إلى الحقيقة ان المخلّص أراد أن يرينا بأن القرابة الروحية هى أعلى من قرابة الدم، وإن الإنتماء إلى الرب لا يفسَّر بالقرابة الجسدية، بل يتمّ بعمل الإرادة الإلهية "أنتم أحبّائي إن فعلتم ما أُوصيكم به" (يو١٥:١٤) . العلاقات العائلية لا يمكن أن تحلّ أو تكون بمستوى خدمة الله . لقد عرف المسيح بسابق معرفته ما سيتعرض له تلاميذه من عداوة ليس فقط من الخارج بل من أقربائهم بالدم أيضاً، ولذلك عندما أرسلهم ليبشّروا قال لهم: "لا تظنوّا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض . ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً ... وأعداء الإنسان أهل بيته" (مت١٠:٣٤، ٣٦) ويقول في مكان آخر "مَن أحبَّ أباً أو أُمّا أكثر مني فلا يستحقّني . ومَن أحبّ ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني" (مت١٠:٣٧) وقد أكّد السيّد لرُسله قائلاً "الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أُماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل إلاّ ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان.... وفي الدهر الآتي الحياة الأبديّة" (مر١٠:٢٩ - ٣٠). كم كان هذا غريباً على مستمعيه لأنه علّمهم أن لا يحترموا أُماً أو أباً أو أخوة أكثر من كلمة الله .

من هم إخوة المسيح ؟

من الخطأ أن نفكّر بان إخوة المسيح وأخواته هم أبناء أُمّه الدائمة البتولية مريم . إنّ كلمة أخ أو أُخت تدلّ على علاقة خاصة بين الناس . لا يوجد في الإنجيل ما يدلّ على أن إخوة يسوع هم أولاد مريم بل بالعكس كان معروفاً أنهم أبناء يوسف، إن كلمة أخ لا تعني بالضرورة شقيق . كانت كلمة أخ تُستعمل في العهد القديم للشقيق، إبن الشقيق، أبناء العم، أبناء الخال، الأنسباء والأقرباء بمعناها الواسع ؛ فأبرام يدعو لوطاً أخيه مع إنه ابن أخيه "فقال أبرام للوط لا تكُن مخاصمة بيني وبينك، وبين رعاتي ورعاتك، لإنّنا نحن أخوان" (تك١٣:٨) ولابان يدعو يعقوب أخيه مع أنه ابن أخته "ثم قال لابان ليعقوب ألأنَّك أخي تخدمني مجّاناً" (تك٢٩:١٥) .

وتعني احياناً ابن العم وقد جاء في سفر الأخبار أنّ "ابْنا مَحْلي أليعازر وقيْس. ومات ألعازر ولم يكن له بنون بل بنات فأخذهنَّ بَنو قَيْس إخوتهُنّ" (أخبار الأيّام الأول ٢٣:٢١ - ٢٢) .

إنّ أقارب يسوع وإخوته هم مُسمّى واحد "ولمّا سمع أقرباؤُه خرجوا ليمسكوه لأنّهم قالوا إنّه مختل" (مر٣:٢١) "فجاءَت حينئذ إخوته وأمّه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه . وكان الجمع جالساً حوله فقالوا له هوذا أُمّك وإخوتك خارجاً يطلبونك" (مر٣:٣١) يتّضح من هذا بأن الذين دُعوا إخوته ليسوا بالحقيقة سوى أقاربه، كما إنهم لم يوُصفوا قط بأنهم

أولاد مريم أو بناتها، فالذين يدعوهم العهد الجديد إخوة يسوع وأخواته هم: يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا، وصالومي واستير وثامار وهم ليسوا أبناء وبنات مريم، ويذكر متىّ في إنجيله والدتهم قائلاً "وبينهنّ مريم المجدليّة ومريم أم يعقوب ويوسي" (مت٢٧: ٥٦)، ويقول مرقس في إنجيله : "وكانت أيضاً نساءٌ ينظرن من بعيد بينهنّ مريم المجدلية ومريم أُمّ يعقوب الصغير ويوسي وسالومة" (مر١٥: ٤٠) أمّا الأخوان الآخران وهما سمعان ويهوذا فقد أتى ذكرهما في لوقا "يعقوب بن حلفى وسمعان الذي يُدعى الغيور . يهوذا أخا يعقوب" (لو٦: ١٥ - ١٦) ويوحنا يوضح هذا بأكثر، فيقول "وكانت واقفات عند صليب يسوع أُمّه وأخت أمّه (قرابتها) مريم زوجة كلاوبا ومريم المجدلّية" (يو١٩: ٢٥) وكلاوبا إسم يوناني لحلفى الاسم الارامى، وتثنية الأسماء لم يكن مُستغرباً ولا بالأمر النادر فقد جاء في العهد الجديد اثبات ذلك فيما يلي:

حلفى – كلاوبا في يوحنا ١٩: ٢٥، أعمال ١: ١٣

متى – لاوي في مرقس ٢: ١٤، لوقا ٥: ٢٧

سمعان – بطرس، صفا – لوقا ٦: ١٤، يوحنا ١: ٤٢

يهوذا – تدّاوس، لو ٦: ١٦، مرقس ٣: ١٨

شاول – بولس أعمال ١٣: ٩

ويسوع يستودع أمّه لتلميذه يوحنّا "فلمّا رأى يسوع أمّه والتلميذ الذي كان يحبّه واقفاً قال لأمّه : "يا امرأة هوذا ابنكِ . ثم قال للتلميذ هوذا أمُّكَ. ومن تلك الساعة

أخذها التلميذ إلى خاصته" (يو١٩: ٢٦ - ٢٧) فلو كان لمريم ولد غير يسوع لما سلَّمها إلى عناية تلميذ غريب عنها لما في ذلك من هضم وتعسّف لحقوق أولادها الآخرين .

واخيراً يدعو يسوع تلاميذه إخوة له "قال لها يسوع لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي ولكن إذهبي إلى إخوتي وقولي لهم ....." (يو٢٠: ١٧ - ١٨) وفي (متى٢٨: ١٠) "فقال لهما يسوع لا تخافا . إذهبا وقولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يروني"، الإخوة هنا هم الرسل وتلاميذ المسيح وإخوة تعني كل الناس (اعمال ٢: ١٤، ٢٩) "ووقف بطرس ورفع صوته وقال لهم "أيها الرجال اليهود والساكنون في أورشليم ..... أيها الرجال الإخوة" .

المسيح يبيِّن من هو المطوَّب

"وفيما هو يتكلَّم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له طُوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما" (لو١١:٢٧) .

في وسط تحريض الكتبة والفريسيين رفعت امرأة صوتها معلنة تجسّد الرب، وبهذا الإعلان وضعت خزياً لأولئك الذين لم يؤمنوا الواقفين حولها، وكذلك هراطقة المستقبل الذين لم يؤمنوا، إذ إنه قبل ذلك جدّفوا ولم يحترموا عمل الروح القدس، قائلين إنه "بعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين" (لو١١:١٥) منكرين بذلك أن يسوع هو ابن الله الحقيقي وإنه من جوهر الآب .

وهذا دَحْض للهرطقات التي ستظهر في المستقبل، والتي تُنكر أن الدائمة البتولية مريم، حملَت وولدت الابن الوحيد في جوهر جسده وكان ابن الانسان الحقيقي ومن طبيعة أمه البشرية، لانه ليس غريباً عن التي حملته وأرضعته من صدرها. "أمَّا هو فقال بل(١) طُوبى للّذين يسمعون كلام الله ويحفظونه" (لو١١:٢٨) .

بإجابة يسوع لهذه المرأة المخلصة التي طوّبت أمّه، علّمها أن لا تفكّر فقط بان الأمومة لابن لامع وشهير يشمل الفرح والبركة . يسوع يعامل الأمومة الطبيعية تماماً كما أنّها رسولية. حقيقة إن العذراء قد

---

١ - بل : أي بالأولى وقد وردت باليونانية **Menounye** من كلمة **Men** وهي أداة تستعمل للتحقيق والتثبيت وتعني حقاً وفعلاً .

بُوركت لأنها أصبحت أداة لتجسّد الكلمة، ولكنها بوركت أكثر لأنها بقيت حافظة لكلمته المحبوبة ؛ لقد حفظت والدة الإله كلام ابنها خلال تعليمه، وهكذا طوبَها المسيح، ليس لها وحدها التي استحقّت أن تلد كلمة الله بالجسد، ولكن لجميع الذين يسمعون كلمة الإيمان ويَلِدون روحياً نفس الكلمة، ويعملون الأعمال الحسنة ويعلّمونها إلى الآخرين .

لم يقُل المسيح هذا جاحداً لأمّه، ولكن ليُري بأن ميلاده لم يكن ربحاً لها لو لم تكن أيضاً مؤمنة ومصدِّقة كل شيء . إنّ ولادة المسيح منها لم يكن تطوبياً لها لو لم تمتلك فضيلة عمل مشيئة الله . وفي كلامه هذا أيضاً تأنيباً للحكماء اليهود الذين لم يسمعوا كلمة الله ويحفظونها بل أنكروها .

لقد حفظت والدة الإله كل ما كان يعمله ويقوله في قلبها . تبعت خطواته أثناء تنقّله في الجليل وفي اليهودية يبشّر ويعلّم ويشفي . وعمّت شهرته أنحاء البلاد وكانت تتبعه بخوف الأم على ابنها، لانها كانت تعرف "ان ليس له أن يسند رأسه" (مت٨:٢٠، لو٩:٥٨) لانه كثيراً ما كان يذهب بدون أن يأكل، وكان بين الجموع من يحسده ويرغب أن يمسك عليه غلطة تخرج من فمه، وكانت العذراء تُخاطر مراراً لتُراقب وتسمع ابنها يعلّم الجماهير، وكانت بين النساء اللواتي يخدمنه والتلاميذ الإثني عشر الذين كانوا معه (مر١٥:٤١، لو٨:١ - ٣) كانت النساء اللواتي تبعن يسوع للتلمذة يسافرن في مجموعات حتىَ يَظهرن باحترام وتكريم .

لم يسمح مخلّصنا للخوف من اتهامهن باللأخلاقية يمنعه من اتخاذ تلاميذ له من النساء، وبالتالي أمر الرجال بالتحلّي بأعلى سلوك المعرفة، عندما قال "وأمّا أنا فأقول لكم . إنّ كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت٥:٢٨) .

العذراء والآلام ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح

لقد بلغت والدة الإله سن الاربعين تقريباً وقد تعمّقت في دراسة وفهم العهد القديم والنبوّات . وعرفت مقدماً عن ابنها وما ورد عنه في الكتب (إشعياء٥:٦) . إن الوقت قد قرب وإنه سوف يتعرّض للخيانة (مت٢٦:٤٧، مر١٤:٤٣، لو٢٢:٤٧، يو١٨:٢) ويُسلَّم إلى رؤساء الكهنة والشيوخ، ويُحاكم ويحضر مقيّداً أمام بيلاطس (مت٢٧، مر١٥، لو٢٣، يو١٨:٢٨ - ٤٠) حُكم على يسوع وأُطلق سراح براباس . عطف المسيح ومحبته للناس، لخلاصه وآلامه المرعبة، تنازله للصلب والرفع على الصليب. تحمّله بإرادته البصق، الضرب، السخرية، الهزء، والرداء القرمزي (مت٢٧:٢٨ - ٣١، مر١٥:١٥-٢٠، يو١٩:١ - ٥) القصبة، الأسفنجة، الخلّ، المسامير، الحربة وفوق كل شيء الصلب والموت .

وهذه ترنيمة باللحن الثالث من يوم الخميس العظيم المقدّس تبيّن كيف إن كل عضو من جسده المقدّس قد تحمّل الآلام وأُهين من أجلنا .

"أيّها المخلّص كل عضو من أعضاء جسدك المقدّس قد صار إهانة من أجلنا . فالهامة بالشوك، والوجه بالبصاق، والخدّان باللطمات، والفم بمذاقة الخلّ ممزوجاً بمرارة، والآذان بالافتراء المفعم من الإلحاد، والظهر بالسياط، واليد بالقصبة، وامتداد جميع الجسم بالصليب، والأطراف بالمسامير، والجنب بالحربة . فيا مَن تألّم لإجلنا وأعتقنا من الآلام وتنازل إلينا بمودته للبشر ورفعنا، أيّها القادر على كل شيء، ارحمنا ."

هذا هو "السيف" الذي تنبأ عنه سمعان للعذراء سيف الألم والحزن الذي جاز في نفسها (لو٢:٣٥) لم تستطع تحمّل مشاهدة ابنها يُصلب ويموت بدون آلام نفسية فظيعة، كانت حزينة بشكل لا يوصف عند مشاهدتها موت ابنها الذي أخذ جسده منها . ومع كل هذا الألم لم تشكّ لحظة بأنه كإله سيقوم من الموت . وَرَد أن أحد الآباء القدّيسين سَمِع بينما كان واقفاً يصلّي وبانجذاب روحيّ صوت ربّنا يتكلّم مع والدة الإله ويسألها "أخبريني يا أُمي عن أكثر الآلام التي كابدتها لأجلي وأنتِ تعيشين على الأرض ؟ فأجابته الأم - العذراء ، يا ولدي وإلهي خمس مرّات قاسيت فيها لأجلك : الأولى، عندما سمعت نبوءة سمعان عن ذبحك، الثانية، عندما فتّشت عنك في أورشليم مدة ثلاثة أيام، الثالثة، عندما سمعت أن اليهود قد القوا القبض عليكَ وقيّدوك، الرابعة، عندما رأيتك معلّقاً بين لصيّن على الصليب. والخامسة، عندما رأيتك تُدفن في قبر .

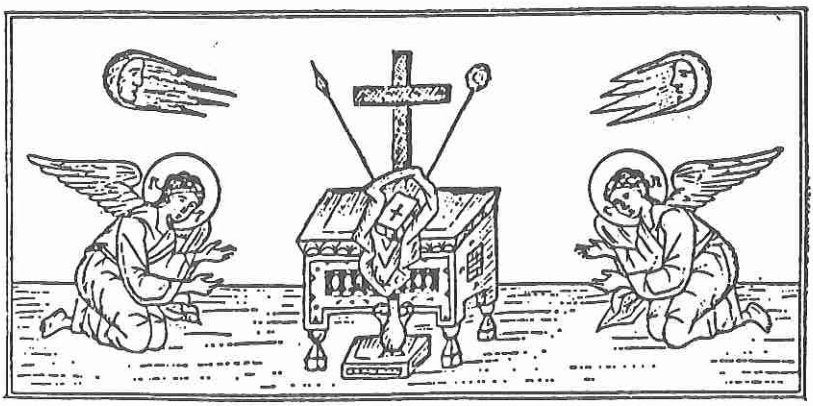

والدة الإله عند الصليب

"وكانت واقفات عند صليب يسوع أمُّه وأخت أمِّه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية" (يو١٩: ٢٥)، البعض يظنّ بأن مريم زوجة كلوبا هي أخت والدة الإله من أبيها ويفسِّرون ذلك بقولهم إن والد والدة الإله يواكيم وحسب الشريعة، عندما مات أخوه كلوبا ولم يكن له وَلد، تزوَّج بامرأة أخيه وأقام نسلاً لأخيه ودَعى الطفلة المولودة له مريم . وهذا ليس صحيحاً، لأنه لم يكن ليواكيم البار أي أولاد آخرين بعد أن قدَّم ابنته إلى الهيكل على يد الكاهن زكريّا . وأكثر من ذلك لا يُعقل أن أباً يُسميّ أبنتين له بنفس الإسم الأوّل .

وقفت الأم عند الصليب في الوقت الذي هرب فيه الرجال . وقفت غير خائفة، وبعيون ملؤها المحبة حملقت بجروح ابنها الذي من خلاله عرفت إنه مخلِّص العالم . وقفت الأمّ ولم تخف من الذابح . ربمّا فكّرت إنه بموتها سترتاح من هذا الألم. ولكنّ يسوع لا يحتاج لمساعد في فداء الجميع، لأنّه خلّص الجميع بدون مساعد. يقول القدّيس كيرلّس الإسكندري (٤٤٤م) "لاهوته لم يتألم، الذي تألَّم هو جسده البشري .... بجعله جزءاً من الخليقة بقي أيضاً فوق الخليقة، لقد أتى تحت الناموس" (غلا٤: ٤) بكونه سيِّداً وفقاً لقداسته، "لكنّه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد" (فيل٢: ٧) كونه الابن الوحيد، أصبح "هو بكراً بين إخوة كثيرين" (رو٨: ٢٩)، بولس الكلّي الحكمة يقول بأن يسوع المسيح "الذي كان في

صورة الله" (فيل٢:٦) ومساوياً لله أبيه "وضع نفسه وأطاع حتىّ الموت موت الصليب" (فيل ٢:٨) "فلمّا رأى يسوع أُمّه والتلميذ الذي كان يحبّه واقفاً قال لأمّه : "يا امرأة هوذا ابنكِ . ثم قال للتلميذ: هوذا أُمُك . ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته" (يو١٩:٢٦ - ٢٧)، ومن تلك الساعة اعتبرها التلميذ يوحنّا بمثابة أمّه وكان يخدمها بكل عناية واحترام . أمّا أُمّ يوحنا الطبيعية صالومي (المتزوجة من زبدي) فقد كانت ابنة يوسف الخطيب من زواجه الأوّل . كما كانت صالومي تعتبر مريم زوجة أبيها ويسوع أخيها من أبيها. نقابل صالومي في الإنجيل عندما طلبت من يسوع أن يُجلس ولديها يعقوب ويوحنّا واحد عن يمينه والآخر عن يساره عندما يَجلس في عرشه السماوي (مت٢٠:٢١، مر١٠:٣٧) ويعلّق القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم بقوله : "عندما كان المسيح على الصليب عَهد بأُمّه إلى تلميذه، معلّماً إيّانا أن نهتمّ بوالدينا حتى آخر نسمة في حياتنا، كما يُرينا كم كان يسوع ثابتاً في صلبه، إذ أنه عمل كل شيء برباطة جأش وبدون اضطراب، يقول لتلميذه ما يتعلّق بأمه، يُتمّ النبوءات، يعطي أملاً جيداً للّص على يمينه، وهوالذي رأيناه قبل الصلب يتصبّب عرقاً، خائفاً من العذاب . ماذا يعني هذا ؟ لا شيء صعب ولا شيء مشكوك فيه . هناك ظهر ضعف الطبيعة البشرية، وهنا قوة أكثر ."

وكانت هناك نساء كثيرات ينظرْنَ من بعيد، وهنّ كنّ قد تبِعْن يسوع من الجليل يخدِمنَه . وبينهنّ مريم المجدلّية ومريم أمّ يعقوب ويوسي وأمّ ابنَي زبدي" (مت٢٧:٥٥ - ٥٦) .

يؤكد القدّيس غريغوريوس النيسى (٣٤٧ - ٤٢٠) بأن مريم

المذكورة في هذه الآية أم يعقوب ويوسي كانت بالحقيقة هي والدة الإلـــه، وأن هذه الحيلة التي استعملها الإنجيلي لا لشيء الاَّ ليخفي أمومة العـذراء عـن اليهود. لأن القدِّيس غريغوريوس شعر إنه في ذلك الوقت لو عـرف اليهود حقيقة سرِّها لذبحوها معه .

القدّيس يوحنا الذهبي الفم (٣٥٤ - ٤٠٧) يمجِّد النسـاء اللواتـي تبعن يسوع في عمله العلني، وأظهرن نوعيتهن بإخلاصهن عنـد آلامـه "هذه الأشياء التي شاهدتها النِسوة اللواتي شعْرن به وكنّ يَنْدِبْنه، وكم كان اهتمامهنّ به عظيماً . تَبْعنه يَخْدمْنَه، وكـانوا حـاضرين وقـت الخطـر وشاهدن كل شيء : كيف تـألم، كيف أسلَم الـروح، كيـف تشـققَت الصخـور وكـل الأحـداث الأخرى . ولكـن من كُنَّ هؤلاء ؟ أمّه، لأنها دُعيت أم يعقـوب (زوجة أب) وغيرهـا، ويشـير القـديس يوحنّا، بأن النساء وقَفْنَ قرب الصليب، والجنس الأضعـف ظـهر أكـثر رجولة .

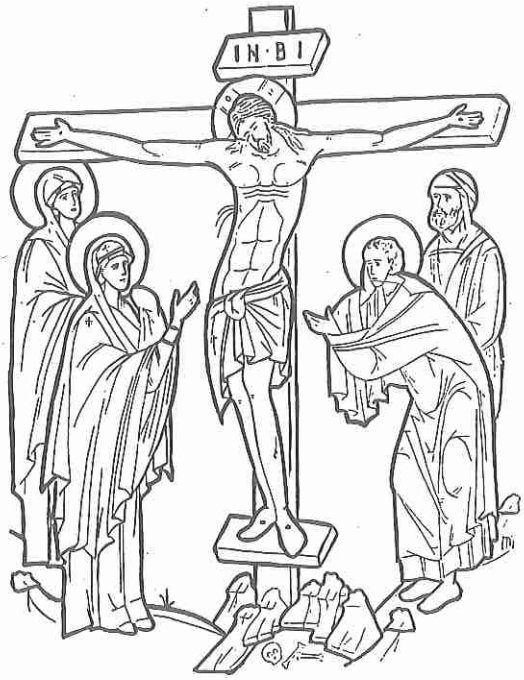

أمومة والدة الإله للعالم

يبيّن القدّيس أفرام (٣٠٦م - ٣٨٣م) إن العذراء هي رمز الكنيسة فيقول "حرّر كنيسته من الختان الجسدي واستبدل يشوع بن نون بيوحنّا الذي كان بتولاً والذي عهد إليه بمريم، كنيسته، كما عهد موسى برعيته إلى يشوع بن نون (عد٢٧:٢٢ - ٢٣، تث٣١:١٤، ١٥، ٢٣) وقد كتب القدّيس جيورجيوس النيقوميدي يقول "هي أُمّ ليست ليوحنّا فقط، بل لكل التلاميذ الآخرين الذين يجلّونها كأمّهاتهم . إن لم يكن واجباً أن أباً إلاّ واحداً على الأرض وهو المسيح فكذلك لا أحد يجب أن يُكرّم كأُم إلاّ مريم" .

ان أمّ الإله هي أمّنا أيضاً، هذا هو التعليم الذي قبلته الكنيسة الأرثوذكسية على مرّ العصور . لقد أطلق عليها القدّيس أبيفانيوس (٣١٥ - ٤٠٣) لقب "أم كل حيّ" مثل حوّاء في الكتاب المقدّس (تك٣:٢١) وبنفس الطريقة عندما أصبحت أمّ الإله المتجسّد صارت أمّ جميع المؤمنين بالنعمة .

القدّيس غريغوريوس بالاماس (١٣٥٩) يكتب عنها "أمّنا جميعاً" لأنّها "وحدها" تضع نفسها بين الله وجميع الجنس البشري، عملت الله ابن الإنسان وحوّلت الناس إلى أبناء الله، القدّيس (أمبروسيوس) يقول إن العذراء هي أم جميع المسيحيين أقرباء المسيح . لانّه هو "بكراً بين إخوة كثيرين" (رو٨:٢٩) لذلك فهي الأم الروحيه لجميع الذين ينتمون إلى ابنها .

وكذلك إن كنتَ ابن الكنيسة فأنت "ابن الرعد" (مر٣:١٧) والمسيح يقول لكَ من على صليبه : "هوذا أُمّك" وعندما نرى المسيح المنتصر على الصليب، فابن الكنيسة هو الذي يرى فيها النصر ويعرف صوت المسيح المُنتصر . ويكتب أحد القدِّيسين عن أمومة العذراء العالمية فيقول "العالم كالبيت . بنَاء وسيِّد البيت هو الخالق، وأب الشعب المسيحي الذي يعيش فيه هو الله. والأمَ في هذا البيت هي الفائقة القداسة أمّ الرب . التي دائماً تسير "تتمشىَ" في حضور أبينا، بمحبة وطاعة له، وكذلك في حضور أمّنا الفائقة القداسة أمّ الرب . بمحبة مقدسة، واحترام وطاعة لها . في احتياجاتك الجسدية والروحية، في أحزانك، في سوء حظّك ومرضك، إلتفت إليها بإيمان وأمل ومحبّة . كن مقدّساً كما إن الله خالقك وأبوك هو مقدّس، ومثل سيِّدتنا والدة الإله وأمُّك أيضاً وفقاً لكلمات المخلِّص "يا امرأة، هوذا ابنك ..... هوذا أمّك"، ان هذه الكلمات التي قيلت في شخص يوحنّا اللاهوتي هي موجهة لنا أيضاً نحن المسيحيين "هوذا أمّك"، نعم هي بالحقيقة أمّنا الكلّية القداسة، مرشدتنا نحن - أبناءها - إلى القداسة .

من الواضح هنا إن الذين دُعوا إخوة الرب وأخواته ليسوا بالحقيقة أولاد أمّه، وهذا واضح من أن السيِّد قد عهد بأمّه قبل موته إلى تلميذه المحبوب يوحنّا، لماذا يفعل ذلك لو كان لها أولاد ؟ لكانوا هم أنفسهم يعتنون بها . إن أولاد يوسف المدعو أباً ليسوع، لم يعتبروا أنفسهم مسؤولين بالاهتمام والعناية لمن اعتبروها زوجة أبيهم أو على الأقل لم يكنّوا لها حبّاً كحب الأولاد لآبائهم في الدم، كما كان يكنّ لها يوحنّا المعهود بها إليه .

القدّيس اثناسيوس الاسكندري (٢٩٦ - ٣٧٣) كان أوّل الآباء

الذين استعملوا الآية (يو١٩: ٢٥ – ٢٧) للدفاع عن بتولية مريم :"بقوله، يا امرأة هوذا ابنك، يعلّمنا إن مريم لم يكُن لها أبناء سوى المخلِّص، لو كان حقيقة لها ابناً آخر، لم يكن المخلِّص ليُهمله ويعَهد بأمّه إلى آخرين . ولكن لأنها كانت عذراء بعد ولادتها وأُمومتها له، عَهد بها إلى تلميذ كأمّه.

يقول القدّيس أبيفانيوس "لو كان قد وُلد لمَريم أولاد آخرين، إذاً ما هو السبب الذي دفع السيِّد لأن يُعطي أمّه ليوحنّا ؟ لو كان لها زوج، لو كان لها بيت، لو كان لها أولاد . لما تركت محلّ إقامتها وذهبت لتُقيم في بيت غريب .

يقول القدّيس يوحنّا كرونستادت . إنه بعد الصلب كان قَصْد الربّ أن يوجِّهنا إلى أمّه بعد نفسه أن تكون هي لنا كل شيء . يكتب "انه لأجلنا تجسَّد الرب، تألمّ، صُلب، مات ثم قام من الأموات، وإنه من أجلنا أيضاً زيَّن أمّه الكليّة الطهارة العذراء مريم بكل الفضائل ومنحها كلّ القِوَى المقدّسة، حتىّ تكون هي الشفوقة الرحيمة بعد نفسه في كل شيء لنا . ولذلك لا تَدع نعمة الله التي ملأَت سيِّدتنا تذهب سُدى ولا تُثمر فينا . دعنا نتقدّم بجرأة وثقة من العذراء الدائمة المساعدة والسريعة الاستجابة والحامية لمكرمّيها.

تنزيل جسد يسوع عن الصليب ودفنه

"ولمَّا كان المساء جاءَ رجل غنيٌ من الرامة اسمه يوسف، وكان هو أيضاً تلميذاً ليسوع . فهذا تقدَّم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع . فأمر بيلاطس حينئذ أن يُعطى الجسد" (مت٢٧: ٥٧ - ٥٨) "وجاء أيضاً نيقوديموس الذي أتي أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيج مُرّ وعود نحو مئة مناً . فأخذا جسد يسوع ولفّاه بأكفان مع الأطياب كما لليهود عادة أن يُكفِّنوا" (يو١٩: ٣٩ - ٤٠) .

يقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم "هذا هو يوسف الذي كان يخفي تلمذته للمعلِّم، كان من الرجال البارزين وأحد أعضاء المجمع، أصبح جريئاً جداً بعد موت المسيح، وعرَّض نفسه للموت بتجرؤه في طلب جسد المسيح، ولم يكفَّ عن طلبه حتى حصل عليه، ونيقوديموس كان فرّيسياً وعضواً في مجمع السبعين شيخاً المعروف (بالسنهدرين) وهو أعلى سُلطة دينية عند اليهود، كان تلميذاً سرّياً وحاول الدفاع عن يسوع أمام المجمع عندما قال "ألعلَّ ناموسنا يدين إنساناً لم يُسمع منه أوَّلا ويعرف ماذا فعل ؟" (يو٧: ٥١) فكان جوابهم له "ألعلّك أنت أيضاً من الجليل ؟ فتّش وانظر، إنه لم يقم نبيّ من الجليل" (يو٧: ٥٢) .

يخبرنا الإنجيلي بأن نيقوديموس قد أحضر مزيج مُرّ وعود(١) نحو مئة مناً (يو١٩: ٣٩)، وهذا يُعيد ذاكرتنا إلى النبيّ القائل " كلَ ثيابِكَ مُرٌّ

١- عود = صبر

وعود وسليخة" (مز٤٥:٨) . المُرّ هو رمز الموت . وحسب تقليد اليهود لا يجوز أن تبقى الأجساد على الصليب في السبت . وكان من العادة أن يُغسل الجسد ويُلفّ بالكتّان، أمّا حالة مخلِّصنا فكانت استثنائية إذ إنّ جسده قد كُسيَ بمزيج من الطيوب المعجونة وهذا المزيج يفرز مادة غروية تلتصق بالجسم وما حوله بقوة . وشُدَّت إلى جسده بأربطة بيضاء وقد تشرّبت اللفائف هذا المزيج والتصقت بالجسد وجفَّت، حتى تشكّل منها قالباً حول جسده، ووُضع غطاء على رأسه، وربُط فكّه برباط تحت الذقن وحول الرأس . ثم حُمِل جسده إلى القبر على حمّالة خشبية "ووضعه يوسف في قبره الجديد الذي كان قد نحته لنفسه في الصخرة . ثمّ دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى" (مت٢٧:٦٠ - ٦١) . كل هذا عمله ليسوع الرجلين الثريين يوسف ونيقوديموس .

كل هذه الأشياء، الصلب، الموت، الطعن، نزع المسامير والدفن قد شاهدته الكلّية النقاوة بحزن أليم من حيث كانت جالسة هي ومريم المجدلّية تجاه القبر .

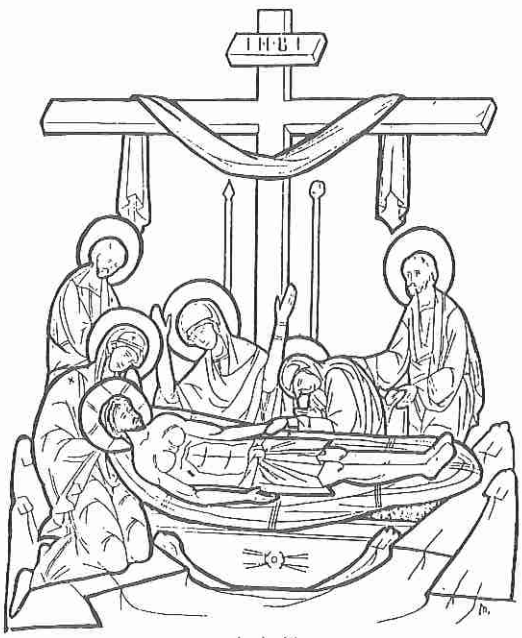

ΤΑΦΟ

والدة الإله وحاملات الطيب

تحتفل الكنيسة بعيد حاملات الطيب في الأحد الثالث بعد عيد الفصح

كل واحد من الإنجيليين الأربعة يورد تفاصيل قيّمة تتعلّق بأحداث قيامة الرب يسوع المسيح . وليس كل هذه الفقرات المتميّزة المعلومات موجودة في الاناجيل الأربعة. ومع كل ذلك لا يوجد شيء أوضح من أن الأربعة يثبتون الحادث بأن نفس يسوع الذي صُلب يوم الجمعة العظيم نهض ثانية بجسده المصلوب صباح يوم الفصح.

حسب التوقيت اليهودي كان اليوم الثالث من دفنه. ومن الجدير بالذكر أن اليوم الثالث قد تنبأ عنه هوشع النبي بما يتعلّق بالقيامة من الموت : "يحيينا بعد يومين . في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه (هو ٦: ٣) .

قبل اليوم الأول من الأسبوع عقدت النسوة التلميذات العزم أن يتقابلن عند القبر "وإذا زلزلة عظيمة حدثت . لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه" (مت٢٨: ٢ - ٣) . يقول القدّيس غريغوريوس بالاماس في عظته يوم أحد النسوة الحاملات الطيب. بأن مريم والدة الإله مع مريم المجدلية كانتا أوّل من وصل. وشاهدتا الملاك ينزل ويُدحرج الحجر وقت الزلزلة . كان ذلك بعد السبت عند فجر أول الأسبوع. ولمّا شاهدت مريم المجدلّية أن الحجر مرفوعا عن القبر (يو ٢٠: ١) والحرّاس من الخوف ارتعدوا وصاروا كأموات

(مت٢٨: ٤) ركضت لتخبر سمعان بطرس والتلميذ الآخر يوحنا (يو ٢٠: ٢) تاركة العذراء عند القبر، وفي هذا الوقت، عندما كانت العذراء وحدها عند القبر ظهر لها ابنها أولاً حسب ما جاء في كتابات القدّيسين : رومانوس، ثيوفانس، غريغوريوس النيقوميدي، غريغوريوس النيسي، ايسيخيوس الأورشليمي، غريغوريوس بالاماس وكيرلّس الاسكندري الذين أيّدوا جميعاً هذه النقطة .

عندما طلعت الشمس انضمت إلى مريم والدة الإله سالومة (مر١٦: ١) ويُونَا (لو٢٤: ١٠) اللواتي اشترين حُنوطاً ليأتين ويدهنَه وكان "معهنّ أُناس" (لو٢٤: ١) وهنّ كما نعرفهنّ من التقليد الشريف كنّ من حاملات الطيب مريم زوجة كلاوبا، سوسنة، مرثا ومريم المرجَح إنهنّ أُختيَ أليعازر من بيت عنيا والمقيمتين في أورشليم، وهؤلاء النسوة الأُخر لم يعرفن بأن الملاك قد دحرج الحجر "فُكنّ يقُلنَ فيما بينهنّ من يُدحرج لنا الحجر عن باب القبر ؟ لأنه كان عظيماً جداً . فتطلّعن ورأين أن الحجر قد دُحرج" (مر١٦: ٤ - ٥) ورأين الملاك جالساً على الحجر . "وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج . فمن خوفه ارتعد الحرّاس وصاروا كأموات" (مت٢٨: ٣ - ٤) .

خاطب الملاك مريم المجدلية ومريم الأُخرى قائلاً لهما: "لا تخافا أنتما. فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب . ليس هو ههنا لأنّه قام كما قال" (مت٢٨: ٥ - ٦) ثم دعاهما قائلاً "هلمّا انظرا الموضع الذي كان الربّ مضطجعاً فيه" (مت٢٨: ٦) . "ولما دخلن القبر" (مر١٦: ٥، لو٢٤: ٣) "لم يجدْن جسد الرب يسوع" (لو٢٤: ٣) ويخُبرنا مرقس الإنجيلي بأن النسوة وجدْن ملاكاً جالساً عن اليمين لابساً حلّة بيضاء فاندهشنَ . فقال لهنّ .

لا تندهشنَ . أنتنَ تطلبن يسوع الناصري المصلوب . قد قام. ليس هو ههنا . هوذا الموضع الذي وضعوه فيه" (مر١٦:٦) وفيما هنَ محتارات (لو٢٤:٤) دخل الملاك الذي كان واقفاً خارج القبر . والآن أصبح ملاكان يقفان أمامهنَ بثياب براقة (لو٢٤:٤) "وإذ كنَ خائفات ومنكسات وجوههنَ إلى الأرض قالا لهنَ . لماذا تطلبنَ الحيَ بين الأموات؟ ليس هو ههنا لكنه قام . أُذكرنَ كيف كلَمكنَ وهو بعد في الجليل" (لو٢٤:٥ – ٦) قائلاً "إنه ينبغي أن يُسلَم ابن الإنسان في أيدي أناس خُطاة ويُصلب وفي اليوم الثالث يقوم. فتذكَرنَ كلامه" (لو٢٤:٧-٨) .

الملاك الذي قابل المرأتين خارجاً قال لهنَ "اذهبا سريعاً، قولا لتلاميذه إنه قد قام من الأموات" (مت٢٨:٧) والملاك الذي وجداه في الداخل جالساً عن اليمين قال لهنَ أيضاً "إذهبن وقُلن لتلاميذه ولكنه أضاف ولبطرس" (مر١٦:٧) إنَ الملاكين أخبرا النسوة بأن الربَ سيسبقهم إلى الجليل وهناك يرونه (مت٢٨:٧، مر١٦:٧) ثم إن الملاك الذي قابلاه خارجاً أنهى الحوار قائلاً "ها أنا قد قلتُ لكما" (مت٢٨:٧) "فخرجتا سريعاً من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتُخبرا تلاميذه" (مت٢٨:٨) ويصف الإنجيلي حالة النسوة وهروبهنَ من القبر قائلاً "لأن الرعدة والحيرة أخذتاهنَ ولم يَقُلنَ لأحد شيئا لأنهنَ كنَ خائفات" (مر١٦:٨) "ورجعن من القبر وأخبرنَ الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كلّه" (لو٢٤:٩) .

بينما عادت النسوة ليُخبرنَ بما رأينَ وسمعنَ، كانت مريم المجدلية التي شاهدت قبلهم ان الحجر قد دحرج، سبقتهم وأخبرت سمعان بطرس ويوحنا قائلة لهما "أخذوا السيِّد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه" (يو٢٠:٢) قالت ذلك لأنها لم تسمع كلام الملائكة ولم ترَ السيِّد بعد . "فقام

بطرس (لو ٢٤: ١٢) "وخرج مع التلميذ الآخر يوحنا وأتيا إلى القبر (يو ٢٠: ٣) "كان الإثنان يركضان معا . فسبق التلميذ الآخر بطرس وجاء أولا إلى القبر وانحنى فنظر الأكفان موضوعة ولكنه لم يدخل . ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر ونظر الأكفان موضوعة . والمنديل الذي كان على رأسه ليس موضوعاً مع الأكفان بل ملفوفا في موضع وحده (يو ٢٠: ٤ - ٧) "فحينئذ دخل أيضا التلميذ الآخر الذي جاء أولا إلى القبر ورأى فآمن (يو ٢٠: ٨) كيف ؟ لأنه رأى أن أحدا لم ينزع لباس القبر عن الجسد وكان كأن الجسد مرّ ببساطة من رأس الثياب والكفن وتركه فارغا. آمن يوحنا بأن أحدا لم يحرّك الجسد من القبر . وان الجسد ترك القبر مخلفا وراءه لفائف القماش كما هي ملتصقة مع بعضها وغير مفكوكة. مارا من خلالها دون أن يحلّ أياً منها . لم تمتد يد لتحرّك يسوع من مكانه أو تسرقه كما ادّعى اليهود. إذ إنه كان على من يريد سرقته. إمّا أن يسرقه بلفائفه وأربطته ولا يُبقي له أثرا. وإمّا أن ينزع اللفائف عن الجسد ويتركها مفككّة في المكان ويسرقه وهذا لم يحصل . لأن اللفائف والأربطة كانت موجودة فارغة ومتّخذة شكل الجسد. وكذلك الرباط حول الرأس وغطاء الرأس بقيا كما هما محافظين على شكلهما كما في الجسد. وهذا يُثبت أن المسيح قد أقام نفسه من الموت ودليل على قيامته. وكتب القدّيس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩ - ٣٩١) "إن قيامة المسيح هي عيد الأعياد وموسم المواسم. إنها تبزّ جميع الأعياد كما تبزّ الشمس النجوم. وهذا صحيح ليس فقط للأعياد البشرية على الأرض بل أيضاً التي تتعلّق بالمسيح ويُحتفل بها للمسيح. وعلى هذا المنوال دخل المسيح على تلاميذه والأبواب مغلقة (يو ٢٠: ١٩) .

صعود ربنا يسوع المسيح بالجسد إلى السماء

تحتفل كنيستنا بتذكاره في اليوم الأربعين أو الخميس السادس بعد الفصح

"ركب على كروب وطار وهف على أجنحة الرياح (مز١٨: ١٠) .

بعد أن قام ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح من بين الأموات، بقي يظهر لتلاميذه مدة أربعين يوما، أراهم بها نفسه حيا ببراهين كثيرة وكان يتكلم معهم فيها عن الأمور المختصة بملكوت الله وقال لهم : "أنني لن أترككم وحدكم، بل سأرسل لكم معزيا يقف إلى جانبكم ويقويكم ويعلمكم ويذكركم بكل شيء قلته لكم وكلمتكم به وهو يتكلم بالحق وينبئكم بكل ما سيحدث ويمجدني . ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وبر ودينونة، وهذا لن يأتي إلا إذا رجعت أنا إلى الآب وأوصاهم ألا يبرحوا من أورشليم، بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني . لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستتعمدون بالروح القدس، وستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهودا في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض وأخرجهم خارجا إلى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم . وفيما هو يباركهم ارتفع وهم ينظرون . وأخذته سحابة عن أعينهم . وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض . وقالا . أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء . إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا إلى السماء" (أع١: ٩-١١) .

في هذا إشارة واضحة إلى الذين سيظهرون على الأرض مدعين كذبا أنهم المسيح ؛ لأن مسيحنا الحقيقي سوف يأتي من السماء كما صعد

بمجد ليدين الأحياء والأموات، حينئذ سجدوا له ورجعوا إلى اورشليم بفرح عظيم وكانوا كل حين في الهيكل يسبّحون ويباركون الله .

صعد المسيح بالجسد إلى السماء :

أولاً :- لكي يرسل الروح القدس إلى تلاميذه ورسله حسب وعده لهم (لو ٢٤:٤٩) ومن خلالهم على المؤمنين لتقديسهم بنعمة الروح القدس ولتبقى هذه النعمة في كنيسة المؤمنين إلى الأبد "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد" (يو ١٤:١٦).

ثانياً :- لكي يفتح لنا الطريق إلى الملكوت السماوي، حسب قوله "في بيت أبي منازل كثيرة، أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً، وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً . وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق" (يو ١٤:٢ - ٤) .

لقد رفع المسيح الجسد البشري وألّهه بصعوده وجلوسه عن يمين الآب، ودعا كل المؤمنين إلى ذلك الطريق بقوله "حيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي" (يو ١٢:٢٦) وخدمَة المسيح هم أولئك الذين يتمّمون وصاياه ويتبعونه في حياتهم الروحية .

يتسأل القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم (٣٥٤ - ٤٠٧)، لماذا أخذته سحابة ؟ هذه أيضاً علامة تؤكّد صعوده إلى السماء . لم يصعد بعربة نارية كما في حالة ايليا، ولكن سحابة أخذته وهي ترمز إلى السماء، حيث يقول داود النبي "الجاعل السحاب مركبته" (مز ١٠٤:٣) .

حلول الروح القدس في يوم الخمسين

تحتفل كنيستنا بتذكاره في اليوم الخمسين أو الأحد الثامن بعد الفصح

بعد صعود المسيح إلى السماء "حينئذ رجعوا إلى أورشليم من الجبل الذي يُدعى جبل الزيتون الذي هو بالقرب من أورشليم على سفر سبت . ولمّا دخلوا صعدوا إلى العليّة التي كانوا يقيمون فيها، بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس وفيلبس وتوما وبرثلماوس ومتىّ ويعقوب بن حلفى وسمعان الغيور ويهوذا أخو يعقوب . هؤلاء كلُّهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلوة والطلبة مع النساء ومريم أُم يسوع ومع إخوته" (أع ١:١٢ - ١٤) .

كانت مريم تنتظر مع الآخرين موعد الروح القدس في اليوم الخمسين، ومكانتها المميّزة بينهم تأكّدت بتسميتها "أمّ يسوع" . بعد صعود يسوع المسيح كانت والدة الإله هي العزاء الوحيدة للرسل، فكانت فرحهم في الحزن ومعلّمتهم الثابتة في الإيمان . فكانت تقصّ عليهم جميع الأحداث التي حفظتها في قلبها منذ بشارة رئيس الملائكة جبرائيل بالحبل بالروح القدس بدون زرع، وبتوليتها في ميلاد المسيح. وكانت تُقوّي رسل المسيح بكلامها عن حياته قبل معموديته من يوحنا السابق . "ولمّا حضر يوم الخمسين كان الجميع بنفس واحدة" (أع٢:١) كانوا منتظرين بفارغ الصبر وبصلاة مستمرة في العلّية، قدوم المعزّي وحلول الروح القدس الذي وعدهم الرب أن يرسله لهم من الآب "صار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرّت على كل

واحد منهم (أع٢:٢ – ٣) . فاستناروا بالروح القدس الذي ظهر على شكل ألسنة على رأس كل منهم . يعلق على هذا القدّيس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩-٣٩١) بقوله : كعلامة تقديس لأعضاء الجسم وللعقل نفسه مظهرا أن الروح القدس يُقيم في القدّيسين وأن ظهور الروح القدس بشكل ألسنة منفصلة يشير إلى تنوّع مواهب الروح القدس. وهكذا يحلّ الروح القدس على كل عضو في الكنيسة بشكل منفصل عن الآخر "أنواع مواهب موجودة ولكن الروح واحد" (١كو١٢:٤) . ولكنه لكل واحد يُعطي إظهار الروح للمنفعة. فإنه لواحد يعطي بالروح كلام حكمة . ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد . ولآخر إيمان بالروح الواحد . ولآخر مواهب شفاء بالروح الواحد . ولآخر عمل قوّات ولآخر نبوّة ولآخر تمييز أرواح ولآخر أنواع ألسنة . ولآخر ترجمة ألسنة . ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء" (اكو١٢:٧ – ١٢) ولكن هل حلّ على الاثني عشر فقط ؟ كلا . بل على المائة والعشرين أيضا "وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلّمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا (أع٢:٤) لم يقل امتلأ الجميع. لو لم يحلّ على جميع المشتركين. وهكذا كان ميلاد الكنيسة في اليوم الخمسين بعد صعود المسيح . إذ حلّ الروح القدس على جميع من كان في البيت متمّما ما جاء في نبوّة (يونيل) ويكون بعد ذلك أنيّ أسكب روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويحلم شيوخكم أحلاما ويرى شبابكم رؤى . وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام" (يو٢:٢٨ – ٢٩) .

إن مواهب الروح القدس قد حلّت على فائقة البركات العذراء بغزارة أكثر من باقي الرسل. فكما أن الوعاء الأكبر يحوي ماء أكثر كذلك فإن

والدة الإله حوت مواهب أكثر لأنها كانت هيكل السيّد الذي أقام فيه قبل هذا. كانت والدة الإله تمتلك جميع الفضائل والمواهب في نفسها المباركة. هي أعلى من الرسل، الأنبياء وجميع القدّيسين . لأنها هي فكر الأنبياء، رأس الرسل، عاضدة الشهداء . هي مجد الأرض، فرح السماء، زينة المخلوقات . هي ذروة وإتمام كل شيء مقدّس. وفكرة شفاعة والدة الإله هي غير قابلة للشك أو حتى السؤال . ويقول القدّيس غريغوريوس بالاماس "لا موهبة مقدّسة تُعطى للملائكة أو للبشر إلاّ بواسطتها . وكما ان الإنسان لا يستطيع أن يتمتّع بالضوء بدون وجود الضوء، هكذا كل حركة تجاه الله وكل نبضة تأتي منه لا تتحقّق إلاّ من خلال العذراء . هي لا تكفّ توزّع مساعداتها على كلّ الخليقة، ليس على الناس فقط بل على المراتب الروحية الكنائسية والكهنوتية أيضاً .

ترك المخلّص أمّه الكلية الطهارة بين الناس، حتى أنه بحضورها ترشدهم، وتعلّمهم وبصلواتها الحارة تثبّت الكنيسة ويزداد مؤمنيها، كانت تشجّع الجميع، تعزّي الجميع بوجودها البهج . وكانت تقوّى عزيمة الذين وضعوا حياتهم شهادة لإيمانهم بالرب، لم يتفرّق الرسل مباشرة إلى العالم للتبشير في الإنجيل، بل ظلّوا فترة في أورشليم اجترحوا فيها كثير من العجائب وزاد عدد المؤمنين . عندما قام عليهم رئيس الكهنة والصدّوقيين وألقوا القبض عليهم ووضعوهم في الحبس (أع٥:١٨) صلّت والدة الإله من أجلهم، ففتح لهم ملاك الرب أبواب الحبس وأخرجهم وقال لهم : إذهبوا، قفوا وكلّموا الشعب في الهيكل" (أع٥:١٩ – ٢٠) .

كانت العذراء تقيم في ذلك الوقت في بيت يوحنا اللاهوتي الواقع على أعلى تلة في أورشليم، جبل صهيون . أخذها التلميذ يوحنا إلى بيته وعاملها كأمّ له وخدمها بكل احترام من وقت أن أوكله الرب العناية

بها (يو١٩: ٢٧) وبسبب رفقتها كتب يوحنا الإنجيلي أكثر من الآخرين عن الأسرار المقدّسة . وكانت والدة الإله في حالة دائمة من العمل النسكي المتمثل بالصوم والصلاة الدائمة وكانت تتوق دائماً لمشاهدة ابنها . شفت كثيراً من المرضى، وتصدّقت كثيراً ورثت لحالة الفقراء والأرامل .

نقراء بأن المسيحيين في أورشليم في ذلك الوقت كانوا يقتسمون أموالهم فيما بينهم وكان عندهم كل شيء مشترك (أع٢: ٤٤ - ٤٥)، وكثير منهم باع أملاكه ووضع ثمنها في الكنيسة لتوزع على الجميع كلّ حسب حاجته (أع٤: ٣٤ - ٣٥) . كان المسيحيون يواظبون كل يوم في الهيكل "ويكسرون الخبز في البيوت (أع٢: ٤٦) وكان الله يجري عجائب على أيديهم فكان المرضى يجتمعون في الهيكل حتى يلمسهم الرسل أثناء مرورهم في ذهابهم للصلاة. ونمَت الكنيسة بسرعة حتىّ إن الرسل عيّنوا سبعة رجال للقيام بالخدمات اليومية وخدمة الموائد (أع٦: ١ - ٣) .

وفي خلال هذه الفترة كان الرسل يسافرون من وقت الى آخر للتبشير ثم يعودون إلى أورشليم ليروا والدة الإله ويستمعوا إلى تعليمها، وذاع مجد الرب يسوع ومعه أنتشر اسم أمّه الفائقة الطهارة ؛ فكان يؤم أورشليم كثير من المؤمنين من بلدان بعيدة لمشاهدتها والاستماع إلى أقوالها، وقد حُفظت شهادات تاريخية كثيرة عن والدة الإله من مؤلّفات معاصريها على الأرض، ومنها رسالة القدّيس أغناطيوس حامل الإله (١١٠م) وكان أحد رسل المسيح، إلى القدّيس يوحنا اللاهوتي، وحسب التقليد الشريف كان هو الولد الذي أقامه المسيح في وسط التلاميذ كمَثَل للتواضع (مت١٨: ٢ - ٤) وقد جاء في رسالته : "إن كثيراً من النساء بيننا يرغبن بزيارة أم يسوع ومشاهدتها ويتعلمن منها بعض الأسرار، وقد

تمجدَت بيننا بأنها أم الإله وهي عذراء مملوءة نعمة وفضيلة . وسمعت أنها باشة في المُلمَات والمِحَن، ولا تحزن في الفقر والعوز، ولا تغضب على الذين يهينونها بل تُحسَن إليهم، وكانت لطيفة في التعامل، تعطف على المساكين، وتساعدهم بكل طاقتها، وتقف بكل تيقظ للدفاع عن الإيمان. هي السيِّدة والمعلِّم والمرشد لكل المؤمنين للعمل الصالح . هي متواضعة وممجَّدة من الجميع .

الآن وقد أخبرنا أُناس موثوق بهم بأن في العذراء أمّ يسوع (والدة الإله) يوجد طهارة ملائكية قد اتَّحدت بطبيعتها البشرية . هذه التقارير أثارت فينا رغبة شديدة، وحثتنا بشغف لرؤية هذه الأعجوبة السماوية المذهلة والممجَّدة . فهل لك ان تلبي رغبتنا بسرعة. آمين .

وفي رسالة أخرى إلى يوحنا اللاهوتي قال فيها "إذا سمحت لي، فانني أرغب القدوم إلى أورشليم لمشاهدة القدّيسين الأمناء وخاصة مريم الأم . التي يقال أنّها تبعث الدهش في الجميع وهي موضع محبة واكرام لمن يرغب في رؤيتها . لأنه من لا يفرح بمشاهدتها ومحادثتها تلك التي حملت بالإله الحقيقي في أحشائها ؟

وقد قام القدّيس لوقا الإنجيلي الذي كان طبيباً ماهراً وخطيباً مفوّها، وبحكمة استلمها من الروح القدس، واستجابة لطلب المؤمنين الغيورين، برسم أيقونة للعذراء الكلّية القداسة تحمل الطفل الذي قبل الأزل ربّنا يسوع المسيح على ذراعيها . رَسَم وجهها وشكلها الذي رآه هو بنفسه بألوان مختلفة، ثم رسم لها أيقونتين أخريتين وأحضرها لها لتوافق عليها . عندما شاهدت هذه الأيقونات المقدّسة قالت : "لتكن نعمة الذي وُلد منيَ، ومن خلالي، تمنح لها" (الأيقونات) "ثم كررّت والدة الإله الترنيمة التي قالتها في بيت أليصابات "تعظِّم نفسي الربّ وتبتهج روحي بالله

مخلصي ....." (لو ١:٤٦ - ٥٥) كما رسم أيضا على لوحين من الخشب أيقونتين للقدّيسين بطرس وبولس. وهكذا أصبح لوقا الإنجيلي هو أوّل من أبتدع الفن المقدّس في رسم الأيقونات لمجد الله. والـــدة الإلـــه وجميـــع القدّيسين وتزيين الكنائس الأرثوذكسية بـــها لتعليـــم المؤمنيـــن . وهـــذه الأيقونات الثلاث التي رسمها القدّيس لوقا للسيّدة موجودة فـــي كـــل مـــن كنيسة العذراء المباركة ميغاسبيليون في اليونان، أيقونة الصيدنايا لوالـــدة الإله في سوريا، والكلّية القداسة "عذراء المديح "الأكاثيستوس" في ديـــر القدّيس ذيونيسيوس في الجبل المقدّس . وقد عملـــت وتعمـــل أيقونـــات العذراء في جميع العصور عجائب كثيرة وأعمال رحمة ومساعدة لكل مـــن يقترب منها بإيمان ومحبّة. فمن خلال أيقوناتها المقدّسة منحت المساعدة، التعزية في الأحزان والضيقات لكل من طلبها . ومـــن خـــلال أيقوناتـــها المقدّسة أيضاً منحت رحمة عظيمة وحماية أُمومة للطالبين شفاعتها .

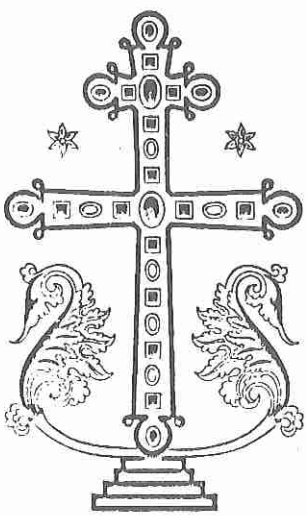

زيارة العذراء للجبل المقدَّس (آثوس)

"وفي ذلك الوقت مدَّ هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة. فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف . وإذ رأى أن ذلك يرضي اليهود عاد فقبض على بطرس أيضاً" (أع١٢: ١ - ٣) .

لقد مرَّت الآن عشر سنوات على صعود مخلصنا، وابتدأ هيرودس أغريبا يطارد المسيحيين، فقطع رأس يعقوب واعتقل بطرس . فأصبح لزاما على الرسل أن يتركوا أورشليم .

فألقوا قرعة فيما بينهم ليقرروا أين يجب أن يذهب كل واحد منهم للتبشير في الإنجيل . وطلبت العذراء مريم ان تلقى قرعة من أجلها حتى تشترك هي نفسها أيضاً بالتبشير، فألقوا القرعة احتراما لها فأصابتها جهة أيبيريا "الآن جورجيا جنوب روسيا" وقبلت العذراء مسرورة نصيبها في القرعة، وعندما عزمت على السفر، ظهر لها رئيس الملائكة جبرائيل ومنعها من السفر قائلاً "أيتها العذراء والدة الإله، إن يسوع المسيح الذي ولد منك يطلب أن لا تتركي أرض يهوذا وأورشليم . لأنَّ نصيبك ليس في أيبيريا بل جبل آثوس في شبه جزيرة مكدونيا، وبعد وقت قصير سوف تبشرين في الأرض التي سيرشدك الله إليها . وهذا المكان الذي أصابك سيُبارك جداً ويستنير بنور وجهك . ثم كشف لها رئيس الملائكة بأن بلاد أيبيريا التي وقعت قرعتها عليها سوف تستنير من إمرأة اخرى .

تفرَّق الرسل ولم يبق إلاَّ يعقوب أخو الرب في أورشليم، الذي اختاره المسيح نفسه ليكون أوَّل أُسقف لأورشليم، وللابتعاد عن الاضطهاد فكَّر القدّيس يوحنا اللاهوتي بالهروب مع والدة الإله، لذلك تركا

أورشليم وذهبا إلى أفسس لأن هذه الجهة قد حُدِّدت بالاقتراع للقدِّيس يوحنا اللاهوتي .

وقد سجل في محاضر جلسات المجمع المسكوني الثالث سنة (٤٣١م) "في أفسس حيث عاش يوحنا اللاهوتي والعذراء والدة الإله، القدِّيسة مريم" هي لم تبق الى آخر حياتها لأنها رقدت في أُورشليم حيث وُلدت ودُفنت في الجسمانية. والتقليد المقدَّس يخُبرنا بأن والدة الإله قد زارت القدِّيس أغناطيوس في إنطاكية، وبعد زيارتها لأفسس وانطاكية عادت والدة الإله الى أورشليم وأقامت في بيت يوحنا الإنجيلي مدة من الوقت، وفي هذا الوقت كان القدِّيس لعازر الذي أقامه الرب من القبر بعد أربعة أيام من دفنه (يو ١١: ١٤ – ٤٤) يعيش في جزيرة قبرص، وقد أقامه الرسول برنابا أُسقفاً عليها . كان لعازر يتشوّق كثيراً لمشاهدة والدة الإله التي لم يرها منذ مدة طويلة، ولم يكن يجروء الذهاب إلى أورشليم خوفاً من اليهود الذين كانوا لا زالوا يفتّشون عليه، ولمَّا علمت والدة الإله بذلك، كتبت للقدّيس لعازر صديق ابنها معزّية له وطالبة منه أن يُرسل لها سفينة لتستطيع زيارة قبرص ورؤيته . فأرسل لها سفينة على عجل، وأبحرت مع يوحنا حبيب المسيح وآخرين، وصلّت العذراء إلى ابنها الكلّي القدرة أن يقود هو السفينة . وحدث أن هبَّت عاصفة شديدة في البحر حملت السفينة إلى اتجاه آخر، وبتدخل إلهي عندما هدأت العاصفة وجدوا أنفسهم عند شواطىء جبل آثوس، وهو أبعد ثلاث نتوءات جبلية في خلكيديكي وهي شبه جزيرة في اليونان، وكان يسكنه في ذلك الوقت قبائل وثنية، كما أن معظم سكان تلك المنطقة كانوا من العذارى الصغيرات المنذورات للآلهة ديانا يُربيْن فيها لخدمة هياكل الأوثان في اليونان . وكان ممنوعاً وتحت عقوبة الموت أن يدخل رجل إلى تلك المنطقة، وقد كتب أغابيوس الإكريتي يقول، بانه عندما اقتربت السفينة التي تحمل

العذراء مريم من جبل آثوس، سقط تمثال جوبيتر المقام على رأس الجبل وتحطّم إلى قطع مخْرجاً صوتاً وكأنه الرعد . ويُقال بأنهم نزلوا إلى الشاطيء قرب دير الإيفيرون الحالي وهناك استراحت العذراء، وقد أُخذت بجمال المكان، وطلبت من ابنها أن يعطيها هذا الجبل بالرغم من أن جميع قاطنيه وثنيّين، فجأها صوت يقول "ليكُن هذا المكان ميراثاً وبستاناً لكِ، وفردوساً ومرفأ خلاص للذّين يفتّشون على الخلاص" وتذكّرت العذراء كلام رئيس الملائكة جبرائيل بعد الخمسين الذي قال لها أن قرعتها ستكون جبل آثوس . وأُطلق عليه إسم الجبل المقدّس لان سيّدتنا والدة الإله اختارت هذا الجبل ووضعته تحت حمايتها . وحالما طلبت وأُعطيت آثوس وفي تلك اللحظة اهتزّت الأرض وسقطت كل التماثيل الموجودة في الجبل وتناثرت قطعاً، حتىّ إن أشجار الجزيرة انحنت إلى الأمام مقدّمة التمجيد والإكرام لوالدة الإله.

كان يوجد في الجبل معبد عظيم للإله (أبولو)، تمُارس فيه أعمال شيطانية كالسحر والتنبوء بالمستقبل، وكان مكرّماً من جميع الوثنيين لأنه المكان الذي اختارته آلهتهم . وكان يؤمُّه الناس من جميع أنحاء العالم للعبادة . وحالما دخلت والدة الإله المرفاء تحطّمت جميع التماثيل، وسُمع صراخ، وصَخب يخرج من التماثيل في آثوس . كما سُمع صراخ يقول "يا رجال أبولو اذهبوا إلى مرفأ كليمنتوس واستقبلوا مريم، والدة الإله العظيم يسوع" وهكذا فإن جميع الشياطين التي كانت تسكن هذه التماثيل أُجبرت رغماً عن إرادتها ولم تستطع أن تُقاوم قوة الله وأعلنت الحقيقة . خرج كل سكّان آثوس إلى الميناء مرحبين بوالدة الإله وأخذوها مع القدّيس يوحنا ومرافقيهم إلى قاعة الاستقبال، وسألوها عن "أي إله حملته وما هو اسمه ؟ فشرحت لهم كل ما يتعلّق بتجسّد المسيح، واستغربوا كيف إن امرأة يهودية شرحت لهم كل شيء بلغتهم اليونانية، فآمنوا جميعاً

بتعاليمها وقبلوا الإيمان المسيحي. وعملت والدة الإله عجائب كثيرة في الجبل المقدّس. وبعد قبولهم المعمودية أقامت مُعلّماً ومرشداً لهم من شعبهم كان مرافقاً لها .

عندما حان موعد رجوعها قالت "ليكُن هذا المكان نصيبي الذي أعطانيه ابني وإلهي. ثم صلّت قائلة "يا ابني وإلهي. بارك هذا المكان نصيبي. صُبَّ رحمتك عليه. واحفظه من كل أذى ولنهاية العالم. والذين يقطنونه لمجد اسمك المقدّس ولي. وبتعبهم وجهادهم في التوبة. إغفر خطاياهم. إملأ حياتهم بكل ما هو ضروري في هذا الدهر وفي الحياة الخالدة في الدهر الآتي. مجّد هذا المكان فوق جميع الأماكن. وأر عجائبك بكل طريقة. املأه برجال من جميع الشعوب تحت السماء. أعفو عنهم من العذابات المؤبّدة. نجّهم من تجارب أعدائهم المنظورين والغير منظورين. ومن البدع والهرطقات. وثبّتهم في استقامة العبادة الأرثوذكسية . وبعد أن باركت هذا القطيع الجديد في الجبل المقدّس دخلت السفينة هي ومن كان معها وأبحروا إلى قبرص. وعند وصولهم إلى قبرص وجدوا القدّيس لعازر في حالة حزن وخوف لتأخرهم بسبب العاصفة. ولكنه لمّا شاهدهم تحوّل حزنه إلى فرح وقدّمت له والدة الإله هدّية (أوموفوريون (بطرشيل) وكُميّن) صنعتهم بيديها، ثم قصّت عليه كل مَا حدث من أورشليم ولغاية الجبل المقدّس، وقدّموا شكراً لله على كل شيء . ومكثت فترة قصيرة في قبرص تُعزّي وتُعلّم المسيحيين، ثم باركتهم وعادت إلى أورشليم .

عاشت والدة الإله في أورشليم بين كُره اليهود وعداوتهم كحمل بين ذئاب. وزهرة بين الأشواك. وكانت تردّد دائماً كلمات جدّها النبيّ داود "الرب نوري وخلاصي ممّن أخاف ؟ الربُ حصن حياتي ممّن أرتعب ؟ إن نزل عليّ جيش لا يخاف قلبي . إن قامت عليّ حرب ففي ذلك أنا

Μ Ρ
Θ Υ

مطمئن . (مز٢٧: ١، ٣) "إذا سرتُ في وادي ظلّ الموت لا أخاف شراً" (مز٢٣: ٤) لانك أنت معي يا ابني وإلهي .

زار القدّيس ذيونيسيوس الآريوباغي العذراء في أورشليم ولمّا شاهدها امتلأ بفرح روحي لا يُوصف وكتب رسالة إلى القدّيس بولس يصف زيارته جاء فيها : "رأيت بعينيّ أمّ ربنا يسوع المسيح الفائقة القداسة، التي تفوق قداستها كل ملائكة السماء . وأعترف أمام الله الكلّي القدرة، أمام نعمة مخلّصنا، أمام المجد العظيم لأمّه العذراء، بأنني عندما تعرّفت على أجمل وأطهر عذراء مع يوحنا، الأول بين الإنجيليين والأنبياء، إلى التي وهي تعيش بالجسد، تشعّ كالشمس في السماء، نور عظيم مقدّس أضاء حولي وأشعل روحي . كما جاء في رسالته أيضاً "أشهد أمام الله، الذي سكن في أقدس أحشاء لعذراء، إنه لو لم تستنر روحي بالتعاليم المقدّسة لكنت اعتبرتها الإله الحقيقي، وكرّمتها وقدّمت لها العبادة كما لله وحده . لا يوجد مجدّ ولا كرامة لإنسان تُقارن بما شاهدته أنا الغير مستحق .

من رسالة القدّيس ذيونيسيوس يتّضح ما تمتّعت به أمّ إلهنا من نعمة مقدّسة فائقة كانت تظهر على وجهها، والتي كانت في حياتها تنير كل من يُشاهدها وتملأه فرحاً روحياً . كان المسيحيون في كل أرجاء الأرض يأتون لزيارتها والتبرّك منها، وكانت تستقبل الجميع بدون تمييز وتمنحهم بركتها، تشفي المريض، تُقوّي الضعيف وتعزّي الحزانى، كانت تثبّت الجميع في الإيمان، تقوّي رجاءهم، وتوّجه الخطأة إلى التوبة . وكانت تمتلىء فرحاً روحياً عندما ترى أنجيل ابنها ينتشر في كل أرجاء العالم، وفي حياتها تمّت نبوّتها التي قالتها لأليصابات "هوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوّبني" (لو١: ٤٨) .

تزمُّر اليهود من والدة الإله

أقامت العذراء كما سبق ذكره في أورشليم في بيت الرسول يوحنا . تعوّدت زيارة الأماكن التي قدّسها ابنها المحبوب، بخطواته وبالامه الخلاصية التي قاساها باختياره وسفك دمه عليها، فحاول اليهود مراراً إلقاء القبض عليها وتعذيبها وقتلها، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، ووشوا بها إلى رئيس الكهنة وإلى الكتبة بأن مريم أم يسوع تعوّدت أن تزور مكان صلب ودفن ابنها وأن لها عادة الركوع والبكاء وحرق البخور في هذه الأمكنة، وانه كان يتبعها رجال ونساء، "من هذه الممارسة لوالدة الإله أصبح الحجّ والصلاة للأماكن المقدّسة عادة للمسيحيين الغيورين" .

ونتيجة للغيرة والحسد والتآمر للقتل تقرّر وضع حرّاس أمام هذه الأمكنة لمنع المسيحيين من الاقتراب منها، وقتل العذراء أم يسوع عند اقترابها، ومع كل هذا كانت العذراء تذهب مع رفاقها إلى القبر المقدّس، ولم يسمح الله للحرّاس برؤية العذراء ومرافقيها، وبعد مدة ترك الحرّاس مراقبة القبر المقدّس تحت قسم أكّدوا فيه لرئيس الكهنة وللكتبة إنّهم لم يروا أحداً عند قبر يسوع .

لكن أعداء المسيح لم يألوا جهداً بتشويه سمعة العذراء الكلّية الطهارة، خاصة بعد أن شاهدوا انتشار المسيحية في كل مكان فبدأوا بنشر إشاعات حقيرة حول الإيمان المسيحي، ومن هذه الإشاعات الوقحة أن يسوع جاء من بيئة منحطّة وغير أخلاقية، وانه ابن غير شرعي لجندي روماني، إن هذه الكذبة البشعة واضحة ولا تجعل الانسان يعيرها أي

اهتمام، لأن جميع عائلة يوسف ومريم نفسها كانت معروفة جيداً لكل سكّان الناصرة، والقرى المجاورة لها والمحيطة بها في ذلك الوقت . "من أين لهذا هذه الحكمة والقوّات ؟ أليس هذا ابن النجّار . أليست أمّه تُدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا ؟ أوليست أخواته جميعهنّ عندنا ؟" (مت١٣:٥٦، مر٦:٣، لو٤:٢٢) هذا ما قالّه معارفه عندما ظهر بحكمته في المجمع . في القرى الصغيرة كان الجميع يعرف بالمشاكل العائلية، وكانت هنالك مراقبة شديدة لطهارة الحياة الزوجية.

فهل كان الناس يتصرّفون بكل احترام ليسوع ويدعونه للخطابة والوعظ في المجمع لو كان هنالك أي شكّ في مولده ؟ ومريم ألم يكن واجباً تطبيق شريعة موسى عليها برجمها بالحجارة حتى الموت لو كان هذا صحيحاً ؟ وهل يُعقل أن تغيب عن الكتبة والفريسيين فرصة كهذه ليُحرجوا المسيح لو كان هنالك أي سلوك شائن يُعيب أُمّه؟ ألم يكن فرصة لأعدائه ليعيّروه ويلطّخوا سمعته وفقاً للشريعة التي تقول "لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب" (تث٢٣:٢) ؟ كانت الحالة عكسية تماماً فمريم كانت تتمتع باحترام كبير، فكانت ضيف الشرف في عُرس قانا الجليل . حتى انه عندما كان يُحاكم ابنها ويُجدَّف عليه، ويُستهزأ به، لم يسمح أحد لنفسه أن يتّهم أو يسخر أو يعيب عليه أمّه .

رقاد الفائقة القداسة سيِّدتنا والدة الإله
الدائمة البتولية - العذراء مريم

كانت والدة الإله تصعد دائماً إلى جبل الزيتون من حيث صعد سيِّدنا إلى السماء أمام أمّه وتلاميذه (أع١:٩) وقد تركت رجله أثراً في الصخرة التي صعد عنها، وكانت تسجد وتقبِّل هذا الأثر، وكانت تصلِّي لابنها وإلهها أن يأخذها من بين الناس لتكون معه . وكانت تردِّد مع المرنِّم "متى أجيء وأتراءى قدام الله ؟ صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً" (مز٤١:٢ - ٣) وكان أسفل جبل الزيتون بستان الجثسيماني الذي تمتلكه عائلة زبدي، حيث خرَّ يسوع على وجهه (مت٢٦:٣٩) وكان يُصلِّي لله الآب . فكانت تذهب إلى هذا المكان وتسجد وتروي الأرض بدموعها وتقدِّم صلوات حارة، وعند قرب إنتهاء إقامتها المؤقتة على الأرض استلمت تعزية من ملاك الرب عندما كشف لها عن قُرب مغادرتها إلى السماء.

أمّا الآن وقد بلغت والدة الإله عمراً متقدماً، وعاشت حوالي خمسة وستين سنة بين المسيحيين الأوَلين وبين رسل المسيح تفيض عليهم النعمة، القوة، والتعزية في مواجهتهم صعوبات الحياة، وقد قدَّموا لها بدورهم كل تمجيد وإكرام، وكانت لها رغبة مستمرة لترك الجسد والالتحاق بابنها وإلهها ومشاهدة وجهه المحبوب. لم تخشَ الموت ولم تفتِّش عن الهروب منه. لأنها عرفت أن ابنها وإلهها قد غلبه، ولكنَّها، حسب ما ورد في أحد المراجع طلبت من ابنها شيئاً واحداً : "أن لا أرى

منظر الشياطين الكئيب" لأنهم كريهين وبشعين، لأنه من الطبيعي للطهارة والتواضع أن تتجنَب أي اتصال أو حتى أي اقتراب ممَن يتمرغون في حمأة القذارة، الوقاحة والخزي.

وبينما كانت والدة الإله تصلّي بحرارة على جبل الزيتون، ظهر لها رئيس الملائكة جبرائيل وبشّرها قائلاً "هذا ما يقوله ابنك : "إن الايّام التي سأحضرك بها إليّ قد قَرُبت، وقد أرسلني الله لأخبرك بأنه يناديك إليه، إلى مملكته، إلى مجده الأبدي، حتى تجلسين عن يمينه في عرشه . إنه ينتظرك، فلا تنزعجي من هذه الكلمات، لكن إقبليها بسرور لأنك ستنتقلين بعد ثلاثة أيام إلى الحياة الخالدة .

ابتهجت العذراء عند سماع الخبر الذي طالما تشوّقت إليه، ثم قال لها رئيس الملائكة "إن ابنك وإلهنا مع الملائكة ورؤساء الملائكة، الشاروبيم والسارافيم وجميع الأرواح والقوات السماوية، سيستقبلونك في المملكة السماوية حتى تحكمي معه إلى الأبد .

يقول التقليد بأن هذا حدث يوم جمعة وفي اليوم الثالث الأحد ستغادر وتكون مع ابنها . وأخبرها رئيس الملائكة بساعة موتها، وكعلامة لكل هذا أعطاها غصن نخلة بلح من الجنّة كانت تشعّ بنور سماوي، وهو يدلّ على أن الموت الجسدي لن يقوى عليها، كما إن الموت الروحي لم يكن له سلطان عليها . كما أخبرها بأن هذا الغصن يجب أن يحُمل أمام نعشها . فقبلت ذلك النبأ بسرور لا يوصف، إذ أنها أخيراً ستكون مع ابنها وتتمتّع بمشاهدة وجهه، ثم جثت على ركبتيها وشكرت خالقها بكل حرارة .

ويعلّق القدّيس جرمانوس (٦٣٥ - ٧٣٣) بطريرك القسطنطينية على غصن النخلة الذي أُعطي لها بقوله، إنه رمز النصر، لأنها ستتغلّب

على الفساد كما تغلّب المسيح على الجحيم . مثل هذه الأغصان حملها أطفال العبرانيين أمام المسيح عندما كان آتيا للآلام بمحض اختياره وانتصر على الموت.

طلبت والدة الإله أن تشاهد القدّيسين التلاميذ الذين كانوا منتشرين في العالم يبشّرون بالإنجيل قبل رحيلها عن هذا العالم لتودّعهم.

عندما ركعت سيّدتنا لتقديم شكرها لخالقها رافقت صلاتها ظاهرة عجيبة، إذ أن شجر الزيتون المزروع على جبل الزيتون انحنى معها وكأن به حياة . عندما كانت العذراء تركع كانت الأشجار تنحني، وعندما تقف كانت الأشجار تستقيم ثانية، هكذا حتى إن الأشجار كرّمت سيّدة العالم.

بعد إنتهاء صلاتها عادت والدة الإله إلى بيتها، وبقُدرة إلهية غير منظورة سطع وجهها بنعمة إلهيه أكثر من وجه موسى عندما كلّم الله في سيناء، ثم جهّزت نفسها للرقاد، وأخبرت بذلك التلميذ يوحنّا وأرته الغصن المزهر من الجنّة وطلبت منه حمله أمام نعشها . وأمرت بتهيئة فراشها وحرق البخور وإضاءة ما أمكن من الشموع، ثم استبدلت ثيابها وعملت كل ما هو ضروري للدفن . وفي الحال أخبر يوحنّا يعقوب أخو الرب أول أسقف لأورشليم، وأخبر جميع الأهل والجيران، ويعقوب أخبر جميع المؤمنين في أورشليم وضواحيها. فأتت جموع كثيرة من المؤمنين وتجمّعوا حول والدة الإله .

أخبرت العذراء الجموع عن الرسالة التي استلمتها من رئيس الملائكة جبرائيل وبلّغها فيها قُرب انتقالها إلى السماء . واثباتاً لذلك أرتهم غصن النخل الفردوسي الذي كان يشعّ كالشمس وبنور سماويّ، فأجهش المؤمنون بالبكاء والعويل واستعطفوا السيّدة الرحيمة أُمّهم جميعاً أن لا

تتركهم يتامى، فوعدت بان لا تتركهم يتامى بعد مغادرتها، وأنها سوف تزور العالم وتساعد المحتاجين وتحامي عن الملتجئين إليها في النكبات والأحزان . وأمرت بأن يُعطى ثوباها لأرملتين فقيرتين خدمتاها بإخلاص وتتناولان غذاءهما منها . وأوصت بأن يُدفن جسدها الطاهر عند جبل الزيتون في بستان الجثسمانية حيث دُفن أبواها يواكيم وحنّة وخطيبها القدّيس يوسف، الذين تقع قبورهم في وادي يهوشافاط بين أورشليم وجبل الزيتون.

بينما كانت والدة الإله تعمل هذه الترتيبات، سُمع فجاءة ضجيج كالرعد، وسحابة منيرة أحاطت في البيت، فبأمر الله خُطف الرسل المنتشرون في أنحاء العالم وأُحضروا جميعهم إلى أورشليم عدا الرسول توما وأُوقفوا أمام باب البيت الذي تقيم فيه والدة الإله.

فرح الرسل عندما شاهدوا بعضهم بعضاً وتعجّبوا متسائلين . "لماذا جمعنا الرب مع بعضنا في هذا المكان ؟ خرج إليهم القدّيس يوحنّا اللاهوتي وحيّاهم بدموع الفرح، ثم أخبرهم عن سرعة مغادرة الكلّي قدسها والدة الإله . عندها عرف الرسل لماذا جمعهم الرب من مختلف انحاء العالم ليحضروا ويشاهدوا ويشاركوا في دفن جسد الفائقة القداسة . دخلوا البيت وشاهدوا والدة الإله جالسة على فراشها، فحيّوا أمّ الحياة بهذه الكلمات : "مباركة أنتِ من الرب الذي صنع السماء والأرض" فأجابت السيّدة "السلام لكم أيّها الأخوة الذين اختارهم الرب بنفسه" ثم سألتهم كيف وصلوا هنا ؟ فأجابوا أنهم بقوة روح الرب كل واحد أُخذ من المكان الذي كان يبشّر فيه بالإنجيل، فمجّدت الله الذي استجاب لصلاتها وحققَ رغبتها لمشاهدة الرسل القدّيسين قبل ساعة موتها .

وفي خلال ذلك حضر الإناء المختار القدّيس بولس الرسول، ووقع على قدمي والدة الإله وفتح فمه بتمجيدها قائلاً "إفرحي يا أم حياتي ووعظي" وقد وصل مع بولس الرسول تلاميذه المقرّبين منه، وهم القدّيس ذيونيسيوس الأريوباغي، القدّيس إيروثيوس، الرسول تيموثاوس وغيرهم من الرسل السبعين، جمعهم كلّهم الروح القدس حتى يروا والدة الإله ويأخذوا بركتها، ثم دعت جميع الرسل واحداً واحداً وكلّ باسمه وغبطتهم على إيمانهم وأتعابهم في البشارة بيسوع المسيح، ثم صلّت من أجل سلام العالم . ثم قالت لهم وهي فرحة "أُمكثوا قليلاً يا أولادي لكي أودّعكم لأنني اليوم سأذهب إلى ابني الحبيب . فبكوا جميعهم وقال لها القدّيس يوحنّا اللاهوتي بلسان الرسل القدّيسين "يا سيّدتي والدة الإله ووالدتي، لقد تركك ابنك الحبيب تعزية لنا، وأنت ستتركيننا الآن، فمَن في هذا العالم سيكون معزياً لنا ؟ من الذي سيقودنا ويرشدنا ؟ من يبقى لنا ليشجعنا إن أنتِ تركتنا ؟ ثم قالت لهم "إسهروا وصلّوا معي حتىَ عندما يأتي الرب ليستلم روحي، يجدكم سهرانين . فوعدوا بذلك جميعهم وصلّوا طوال الليل بتسابيح ومزامير" عندها بكت السيّدة وقالت "لا تحزنوا يا أولادي، ومع أنني سأذهب إلى ابني الذي هو صديقكم، فسوف لا أتخلّى عنكم ولا عن الذين يدعونني، وسوف أكون شفيعة ووسيطة لجميع المسيحيين أمام ابني الحبيب . لذلك لا تبكوا يا أصدقاء ورسل ابني وإلهي، بل إفرحوا لأني ذاهبة إليه . لقد جهّزت جسدي بنفسي للدفن، فأودعوه أرض الجسمانية . ثم عودوا بعد ذلك للتبشير في الإنجيل، وبمشيئة الرب سوف ترونني بعد مغادرتي، وسأبقى معكم أقوّيكم وأعزّيكم في محَنكم وأحزانكم" .

بلغ يوم الرب، وفي اليوم الخامس عشر من شهر آب وهو اليوم الثالث بعد بشارة رئيس الملائكة لها بانتقالها المجيد، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة من النهار (التاسعة صباحاً في التوقيت الحالي) وقد أُشعلت الشموع وكان الرسل يمجّدون الله، وعلى سرير مزخرف جميل كانت تضطجع عليه والدة الإله مجهزة نفسها لنهايتها المباركة ومتهيئة لاستقبال ابنها الحبيب عندما يأتي إليها، ودّعت كل تلميذ ببركة .

ثم رفعت يديها نحو السماء وصلّت وبعد الصلاة قالت للرسل "إحرقوا البخور وصلّوا، لأن المسيح آتياً مع ملائكته جالساً على عرش شيروبيمي" وعندما صلّوا سمعوا صوت كأنه رعد من السماء . إنفتح سقف البيت فأضاء الغرفة نور سماوي لا يوصف، وظهر المسيح ملك المجد تحيط به الملائكة ورؤساء الملائكة وجميع القوّات السماوية، ومعهم الآباء القدّيسون والأنبياء الذين تنباؤا عن العذراء الطاهرة، ونفوس الصدّيقين، ويذكر القدّيس يوحنا الدمشقي في وصف هذا الحادث بأنه وجد معهم أيضاً أمّ والدة الإله حنّة، أليصابات، إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود وجوقة القدّيسين وكانوا يُسبّحون ويرتّلون ويمجّدون أُمّ الرب" وعند مشاهدتها اقتراب ابنها صرخت بفرح عظيم "تعظّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلّصي" (لو١:٤٦ - ٤٧).

نهضت عن سريرها وكأنها تريد أن تقابله وسجدت له، نظر إليها بمحبة، وقال "قُومي يا حبيبتي، يا جميلتي وتعالي" (نشيد٢:١٠) قومي وتعالي إلى مملكتي لأنكِ أنتِ ملكة الجميع، عندها تقدَّم الرسل منها بوقار كبير طالبين منها أن تبارك العالم الذي ستتركه، فصلّت ثانية وقالت "أيها الرب، ملك السموات، ابن الله الحيّ، إقبل كل من يدعو إسمك،

حتى يتمجّد ميلادك . وحيث يذكر اسمك هناك يُذكر اسمي أيضاً ويتقدّس ذلك المكان . مجِّد الذين يمجّدونك بإسمي، وإقبل منهم كل تقدماتهم وطلباتهم وكل صلواتهم . فأجابها السيِّد قائلاً "إفرحي وابتهجي لأن كلّ نعمة وموهبة قد أُعطيت لكِ من أبي في السماء، ومنيّ، ومن الروح القدس. إن كل من يدعو بإسمكِ سوف لا يخزى، بل سيجد رحمة، تعزية، عضداً وأماناً في هذا العالم والعالم الآتي أمام أبي الذي في السموات .

نهضت وباركت كل تلميذ بيدها وأعطت مجداً لله . ثم قالت : "مستعدٌ قلبي يا الله، مستعدٌ قلبي" ثم كررّت قولها "ليكُن لي كقولك" (لو ١:٣٨) ثم عادت واضطجعت على سريرها وسلّمت روحها الطاهرة إلى يديّ ابنها . ومدّ الرب يديه الطاهرتين واستلم روحها المقدّسة البريئة من كل دنس . لم تشعر بأي ألم، فكانت وكأنها تغطّ في نوم حلو . إنّ الذي ولدته بدون أن تنحلّ عذريتها، وحملته بلا ألم، الآن يستلم روحها من جسدها الكليّ الطهارة .

حينئذ دوّى نشيد الملائكة يرتلون كلمات جبرائيل "إفرحي يا ممتلئة نعمة، الرب معك . مباركة أنتِ في النساء" (لو ١:٢٨) بترانيم النصر هذه، مرافقة روحها المقدّسة وهي في يديّ الرب إلى السكنى في الأعالي . وتابع الرسل هذا المشهد الذي استحقوا أن يروه، متابعين صعود روحها مع السيِّد كما تابعوا صعوده عندما ارتفع من جبل الزيتون" (أع١:٩ - ١٠) وعندما عادوا إلى أنفسهم سجدوا للرب الذي رفع روح أمّه بمجد إلى السماء، وأحاطوا بسريرها يبكون .

كأن وجه والدة الإله يشع كالشمس ورائحة طيب زكي يفوح

من جسدها الطاهر، عطر لا يمكن أن نجده في العالم . وبخـــوف وورع قبّل الرسل جسدها الطاهر وبلمسه تقدّسوا منه، وأحسّـــوا بنعمـــة إلهيـــة تغمرهم . كما ودّعها جميع المؤمنين، وقبّلوا جسدها الطاهر الذي خرجت منه قوّة مقدّسة ملأت قلوب الذين لمسوا رفاتها : المرضى تعافوا، العميان استعادوا بصرهم، وفُتحت آذان الطرشان، العُـــرج أصبحـــوا يمشـــون، والأرواح الشريرة خرجـــت، وباختصار فان جميع المرضى الذين لمســـوا والدة الإله شفوا من أمراضهم، وجميع الحاضرين مجدّوا المســـيح إلـــهنا وأمَه القدّيسة .

في وسط هذه الأحداث التي رافقت رقاد والـــدة الإلـــه، ابتـــدأت مراسيم الدفن، فحمل بطرس وبولس ويعقوب جسدها الطاهر على أكتافـهم يتقدمهم القدّيس يوحنّا اللاهوتي حاملاً غصن الجنّة الذي كان يشع بنـــور سماوي، ورافق نعشها جميع التلاميذ والمؤمنين، ساروا بقربها حـــاملين الشموع والمباخر، مرنّمين صلاة الجنازة، التي مرّت بموكـــب خشـــوعي من صهيون مارين بأورشليم إلى الجسمانية، وحسب طلب مخلّصنـــا بـــدأ بطرس بترتيل أحد مزامير داود : "عند خروج إسرائيل من مصـــر وبيـــت يعقوب من شعب أعجم . هللويا . كان يهوذا مقدسه . وإسرائيل محـــلّ سلطانه . هللويا ...." الى آخر (مزمور ١١٤) .

ورافقت الموكـــب سحابـــة مستديرة في شبه أكليل كانت تشـــع نـــوراً بهياً، وسُمعت أصوات ترانيم ملائكية تخرج من السحابة وتمـــلأ الفضاء . وكثير من اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح عند ســـماعهم هـــذه الترانيم الغير عادية تركوا بيوتهم وانضموا إلى الجموع . عندمـــا ســـمع رؤساء الكهنة والكتبة عن هذا، إلتهبوا حقداً وحرّضـــوا بعـــض النـــاس

وأرسلوا خدّام الهيكل والجنود لتفريق الموكب . وأمروهم أيضاً بقتل تلاميذ المسيح وحرق جسد مريم، وأشاعوا بأن هذه المرأة قد دمّرت الشعب اليهودي .

دخل الشيطان في هؤلاء الرعاع، فتسلّحوا للمعركة وأسرعوا لوقف سير الموكب، وعندما ابتدأوا بالتحرش بجمهور المؤمنين، إذ بالسحابة الدائرية التي كانت تسير في الهواء هبطت وأحاطت بالمشيّعين مُشكِّلة سدّاً منيعاً لحمايتهم، وهكذا ساروا بالترانيم بدون أن يروا أحداً خلفهم وأُصيب المطاردون بالعمى، وابتدأوا بضرب رؤوسهم بالحائط، وصَدموا بعضهم بعضاً وآخرين لم يعرفوا أين يذهبوا وفتّشوا على من يرشدهم على الطريق .

في ذلك الوقت كان كاهن يهودي اسمه أثونيوس أو كما كان يدعوه البعض أثناسيوس ماراً في الطريق عندما ارتفعت السحابة، فشاهد الرسل القدّيسين وجموع المسيحيين حاملين الشموع يرنّمون حول موكب والدة الإله، امتلأ حقداً وحسداً فاندفع بجنون ومرَّ بين المشيّعين راكضاً نحو النعش محاولاً رمي جثمان العذراء على الأرض، وما إن لمست يداه النعش حتى بُترت يداه بضربة غير مرئية من ملاك بسيف الغضب الإلهي، والتصقت بالسرير وسقط على الأرض في عويل مرعب يصرخ "ويل لي" وأمّا اليهود الذين شاهدوا ما حدث لكاهنهم صرخوا "حقاً، إنَّ الذي وُلد منكِ هو إله حقيقي، يا والدة الإله، الدائمة البتولية مريم .

عَرَف أثونيوس خطيئته، تاب ونادى الرسل قائلاً "إرحموني يا خدّام المسيح" فأوقف بطرس الموكب وقال لأثونيوس "الآن حصدت نتيجة

عملك . إعلم "إن الرب إله النقمات . يا رب يـــا إلـــه النقمـــات أشـــرق" (مز ٩٤: ١) نحن لا نستطيع أن نشفيك، الرب وحده فقط الـــذي صلبتمـــوه بدون وجه حق قادر على كـــل شيء، وهو لا يمنحك الشفاء، حتىّ تؤمن به من كل قلبك وتعترف بفمك أن يسوع هو مسيّا الحقيقي ابن الله .

صرخ أثونيوس بصوت عظيم قائلاً "أومن بانه مخلِّص العالم الذي سبق أن تكلّم عنه الأنبياء . وأنه هو المسيح . وقد رأينا من الأول إنـــه هو ابن الله، ولكن الحسد أعمى قلوبنا فلم نعترف به وأسلمناه إلى المـــوت وهو البريء . ولكنه قـــام في اليوم الثالث فأخزينا جميعاً . حـــاولنا إخفاء قيامته برشوة الجنود ولكننا لم نفلح، لأن مجد القيامة ظهر وانتشر في العالم .

عندما اعترف أثونيوس وتاب عن خطيئته، فرح الرسل وجميـــع المؤمنين لخلاص هذه النفس الهالكة . وأمره القدّيس بطرس بأن يضـــع ذراعيه المقطوعتين على أطراف يديه الملتصقتين بـــالنعش، وأن يدعـــو والدة الإله بإيمان . ولمَّا فعل أثونيوس ما أُمر به التحمت يداه في الحـــال ولم يبقَ من أثر للقطع سوى خط أحمر حول المرفقين للدلالة على القطع .

سقط أثونيوس أمام النعش ساجداً للمسيح الإله الذي ولِـــد مـــن العـــذراء مريم . ثم ابتدأ يُردِّد نبوءات العهد القديـــم التي تشهد للعذراء مريـــم وللمسيح، وكانت دهشة مزدوجـــة لمشـــاهدة أثونيـــوس يُشـــفى بأعجوبة، وسماعه يردِّد كلمات حكيمة يمجِّد فيها الرب يســـوع المســـيح ويمدح والدة الإله، وانضمّ إلى جمـــهور المشـــيّعين فـــي طريقـــهم إلـــى الجسمانية، ثم اعتمد فيما بعد .

أما الذّين ضُربوا بالعمى فقد اعترفوا بخطيئتهم، وتقدّمـــوا بكـــل

ورع وخشوع ولمسوا النعش بإيمان فشفوا، وعاد إليهم بصرهم الجسدي مع إبصار روحي أيضاً . وهكذا لم تشأ الأم الرحيمة، سيّدتنا الفائقة القداسة التي بميلادها أعطت الفرح للمسكونة، لم تشأ أن تحزن أحداً في رقادها، فقد رحمت الجميع وأبهجتهم حتى أعداءها أنفسهم.

وأخيراً وصل الرسل القدّيسون مع جمهور المشيّعين إلى البستان، وما إن وضعوا النعش الحامل أثمن جسد، حتىّ ابتدأ المسيحيون بالبكاء، نادبين يُتمهم لفقدهم هذا الكنز الثمين . وعند قُبلة الوداع سقطوا أمام جسد والدة الإله يقبّلونه بدموع حارة، حتىّ لم يستطعيوا أن يُودعوا جسدها الطاهر في قبر جديد إلاّ عند المساء . ودحرجوا حجراً كبيراً على باب القبر، ولم يشأ المؤمنين مغادرة المكان لعظَم محبتهم لوالدة الإله . وأقام الرسل عند قبرها ولم يغادروا الجسمانية لمدة ثلاثة أيام مرنّمين المزامير والصلوات باستمرار، وخلال هذا الوقت كانت تُسمع أصوات ترانيم جميلة من الملائكة في السماء، تمجّد الله وتمدح أمّه الكلّية الطهارة البريئة من الدنس .

رقدت والدة الإله في الوقت الذي كان القدّيس توما يبشّر في الإنجيل في بلاد الهند، وقد حملت سحابة الرسل من جميع أنحاء العالم من البلاد التي كانوا يبشّرون فيها بالإنجيل، وأحضرتهم إلى الجسمانية عدا القديس توما، وذلك بتدبير إلهي حتى يتأكّد المؤمنون بأن والدة الإله قد انتقلت بالجسد إلى السماء، كما تأكّدوا من قيامة المسيح نتيجة شك توما. هكذا علموا عن رفع جسد الكلية الطهارة العذراء مريم إلى السماء بسبب تأخر القدّيس توما عن حضور تشييع جثمانها .

في اليوم الثالث من الدفن خطفت سحابة القدّيس توما من الهند وأحضرته إلى مكان في الهواء فوق قبر العذراء . من ذلك المكان شاهد جسدها يرتفع إلى السماء فناداها قائلاً، أين انتِ ذاهبة أيتها الكلّية القداسة ؟ وحلّت زنّارها وأعطته لتوما قائلة "خذ هذا يا صديقي" واختفت . ثم نزل ليجد التلاميذ الآخرين يحرسون قبر والدة الإله . جلس بقربهم وكان حزيناً جداً لأنه لم يكن موجوداً عند رقادها كباقي الرسل الآخرين، وطلب منهم فتح القبر حتى يرى جسدها الطاهر ويودّعها . دحرج الرسل الحجر، فتحوا القبر، ووقفوا مدهوشين، عندما اكتشفوا بأن جسدها اختفى، وكل ما بقي هو لباس الدفن التي كانت تفوح منها رائحة طيب لا يُوصف . عندئذ أخبرهم القدّيس توما أنه رأى جسدها يرتفع إلى السماء، وقد أعطته (زنّارها الشريف) وأراهم إياه، ففرحوا . وسألوا الرب أن يُظهرها لهم .

إن الكنيسة المقدّسة تُسمّي نهاية حياة مريم رقاداً "لأنها نامت وقتاً قصيراً كما في حلم وأفاقت كما من حلم"، إن نواميس الطبيعة قد غُلبت في العذراء الفائقة القداسة : لأنها في الحبل والولادة وبعد الولادة بقيت بتولاً، وفي الموت لَم يُمسّ جسدها، وبعد الموت استمرّت حيّة . وهي لا تنام في محاماتها عنّا، فتمنحنا الإيمان لتعزيتنا في الأحزان والضيقات .

تحتفل كنيستنا بتذكارها في اليوم الخامس عشر من شهر آب من كل عام .

ظهور العذراء بالجسد للرسل القدّيسين الأطهار

بعد صعود المسيح، عندما كان الرسل يجتمعون على المائدة كانوا يتركون الموضع الأول خالياً للرب، ويضعون فيه وسادة وعلى الوسادة قطعة من الخبز الذي يأكلونه، يدعونه جزء الرب وعند نهاية المائدة كانوا يقفون ويشكرون خاتمين صلاتهم برفع هذا الجزء بورع ممُجِّدين وقائلين "عظيم هو اسم الثالوث القدوّس، أيّها الرب يسوع المسيح أغثنا"، ثم يوزعَونه فيما بينهم كبركة من الله . هذا العادة استمرت معهم وهم مجتمعون وهم متفرقون وبعيدين عن بعضهم بعضاً أيضاً، هكذا كان ترتيب العشاء بعد رجوعهم من القبر، لم يتكلّموا أو يُفكّروا بشيء إلاّ برؤيتهم قبر العذراء فارغاً، وهم مرتابون ممَّا حدث لجثمانها . وبعد انتهاء العشاء والصلاة وعند رفعهم جزء الرب حسب عادتهم، وعندما بدأوا بتمجيد الثالوث القدّوس، سمعوا فجأة ترانيم ملائكية . فرفعوا عيونهم شاهدوا والدة الإله في الهواء يحيط بها جمهور من الملائكة وهي مشرقة بمجد سماويّ، وقالت للرسل "السلام لكم، إفرحوا لأني معكم كل الأيّام" حقيقة هي ليست مع رسل ابنها فقط ولكنها مع جميع المؤمنين السالكين حسب التعاليم القويمة للكنيسة المقدّسة .

دُهش الرسل عند مشاهدتهم لها وامتلاؤا فرحاً وصرخوا بصوت عظيم قائلين "أيتها الفائق قدسها والدة الإله خلِّصينا" بدلاً من "أيها الرب يسوع المسيح، أغثنا" وهكذا تحقّقوا إن والدة الإله كابنها ارتفعت إلى

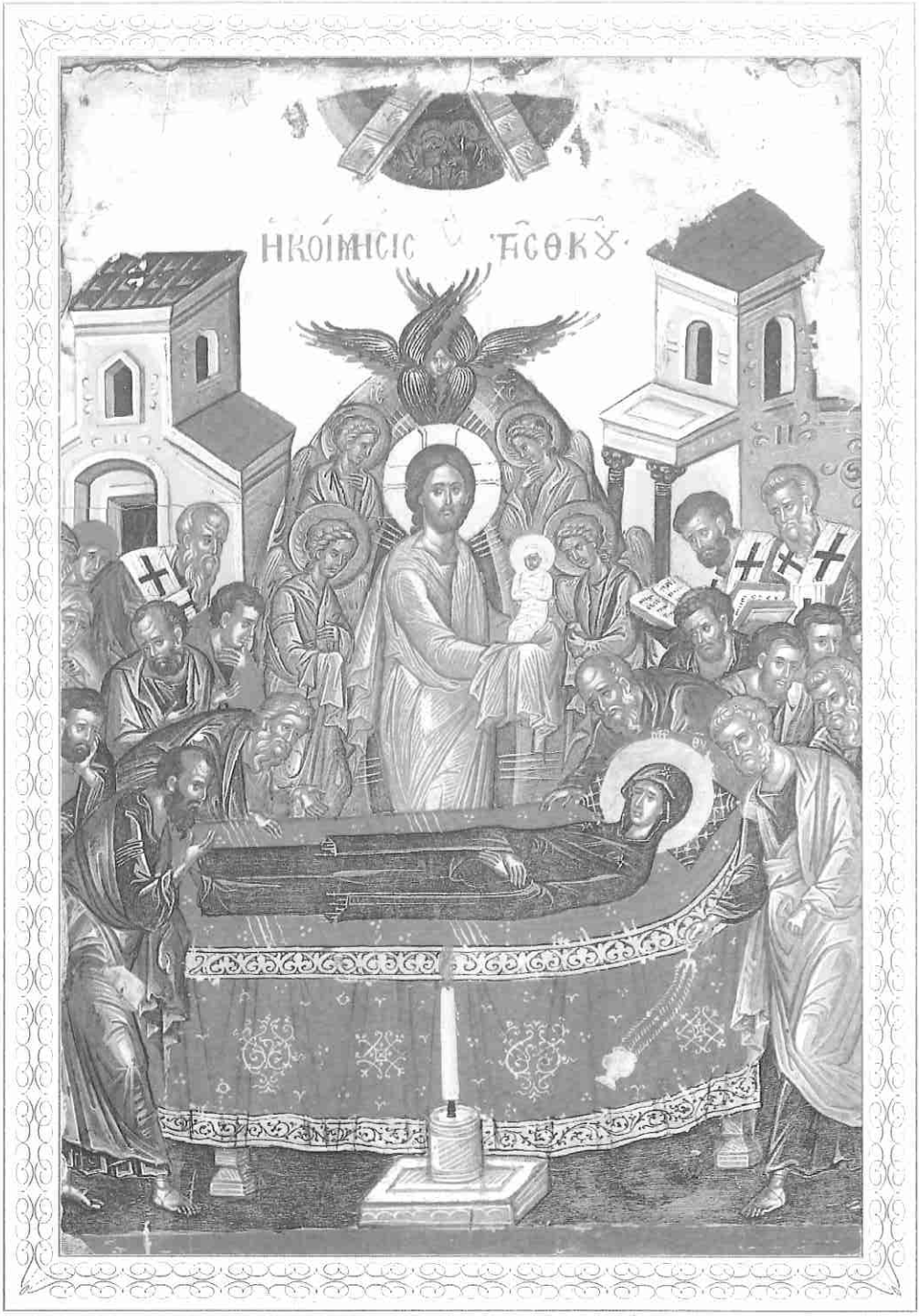
Η ΚΟΙΜΗΣΙΣ ΤΗΣ ΘΚΥ

السماء بالجسد في اليوم الثالث من رقادها، ومنذ ذلك الوقت صار يُعتمد في القدّاس الإلهي، التقليد الكنسي التالي:

بعد أن يُعلن الكاهن قائلاً : "وخاصة من أجل الكلّية القداسة الطاهرة الفائقة البركات المجيدة، سيّدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم" . يرفع الصينية التي تحتوي على القُدسات التي توزّع على المؤمنين في نهاية الخدمة الإلهية والمعروفة (بالبروتي) فوق الكأس المقدّسة ويحرّكها راسماً بها شكل صليب ثلاث مرات قائلاً في كل مرة "عظيم هو اسم الثالوث القدوّس، أيتها الفائق قدسها والدة الإله خلّصينا" . ثم يُبارك الكاهن القُدسات قائلاً : "أذكر يا رب عبيدك الذين قدّموها والذين قُدِّمت لأجلهم" .

أما في الأديرة فقد اعتُمد منذ ذلك الوقت أيضاً التقليد الكنسي التالي، فيما يتعلّق بجزء الخبز الذي يُوضع على المائدة (الباناجيا) :

بعد الغذاء وتلاوة صلاة الشكر يقوم المزمع أن يرفع الباناجيا ويعمل (مطانية) للآباء قائلاً: "باركوا أيها الآباء القدّيسون، واغفروا لي أنا الخاطىء" فيجيبونه : "الله يغفر لك ويرحمك" .

ثم يتناول الباناجيا بأطراف أصابع كلتا يديه ويرفعها قائلاً بصوت مرتفع : "عظيم إسم، فيجيبونه : الثالوث القدوّس" .

فيرسم بها على شكل صليب قائلاً : يا والدة الإله الكلّية القداسة أعينينا، فيجيبونه : "أللهمّ بشفاعاتها ارحمنا وخلّصنا" .

ثم بواجب الاستهال حقاً نغبّط والدة الإله الدائمة الطوبى البريئة من كل العيوب أم إلهنا . يا من هي أكرم من الشاروبيم، وأرفع مجداً

بغير قياس من السيرافيم . يا من هي بغير فساد ولدت كلمة الله، حقاً إنّك والدة الإله إياك نعظّم.

ثم يجري توزيع الباناجيا على الحضور مع كأس صغيرة من النبيذ.

عاد الرسل إلى القبر وأخذوا الكفن تعزية لهم في حزنهم، وأثباتاً موثوقاً به لقيامتها من القبر، وسلّموا إيمانهم هذا الذي لا ريب فيه إلى الكنيسة المقدّسة .

هكذا تغلّبت العذراء على قوانين الطبيعة . حُفظت بكارتها في حبلها وفي ميلادها وبقيت عذراء بعد الولادة، وحيّة بعد الموت، وهي تصلّي بدون انقطاع كأم لنا ومحامية عنّا . ثم إن الرسل عادوا على نفس السحابة التي أحضرتهم، كلٌّ إلى المكان الذي حضر منه ليكمّلوا عمل البشارة وإخبار الناس بأعمال الله العظيمة، وتمجيد الرب يسوع المسيح، وهكذا لم يكونوا شهوداً على قيامة المسيح فقط بل على رفع التي ولدته أيضاً .

منذ ذلك الوقت أصبح ارتفاع والدة الإله بالجسد في اليوم الثالث من دفنها تقليداً في الكنيسة الارثوذكسية المقدّسة . ونستنتج من هذا الحدث أنه ليس من الملائم أن تبقى أم الحياة في القبر وتتعرّض إلى الفساد، وإن مُعطى الشريعة حقّق ما وضعه في الشريعة من وجوب إكرام الأبوين، فأسبغ على أمّه ما أسبغه على نفسه وأقامها ممجدّة في اليوم الثالث وأخذها لنفسه .

والدة الإله والكنيسة

ممّا تقدّم نرى أن العذراء مريم كانت أكثر مثالاً في الطاعة، كانت اكثر من قدّس . فهي كلّية القداسة، الدائمة البتولية ووالدة الإله . إنها اللاهوتية الأعظم في الكنيسة . فهي "أكرم من الشيروبيم وأرفع مجداً بغير قياس من السيرافيم" وكما كتب عنها القدّيس يوحنّا الدمشقي (٦٧٦-٧٥٠) قائلاً "تجسّد فيها كل سرّ التدبير الإلهي" .

وكما رأينا، قال عنها الكتاب المقدّس أكثر مما يُدرك معظم الناس، بطريقة مخفية، كُشفت فقط للمؤمنين من خلال التقليد الشريف وكتابات الآباء القدّيسين . وإذا كان صمت عام عنها في الكنيسة الأولى، فقد كان مقصوداً، لتجنّب المقارنة مع الديانات الوثنية التي تتشابه بوجود أم وطفل كآلهة المصريين إزيس وسرابيس . فقط خلال القرنين الرابع والخامس تطلّبت الأحوال السائدة شرح وتوضيح دور العذراء في خطة الخلاص .

حيث إن مريم والدة الإله هي جسد واحد مع ابنها الكلي القداسة، لذلك فهي بالضرورة أمّ كل من يعتمد في جسد المسيح، الكنيسة. وبما أن الله الكلمة أخذ طبيعته البشرية من جسد الكليّة الطهارة فنحن باتحادنا به نصبح أيضاً "أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه" (أفس ٥: ٣٠) .

ليس عبثاً كتب القدّيس أبيفانيوس القبرصي (٣١٥ - ٤٠٣) قائلاً إنّها "أورشليم المقدّسة، عذراء المسيح، عروسه" لأن ما مُنح للعذراء وهي في الجسد مُنح روحياً للكنيسة . "إنها مدينة الله الملك الحيّة التي سكن فيها المسيح وعمل لأجل خلاصنا" .

يُشير كلمنت الإسكندري (قبل ٢١٥م) إلى العذراء-الكنيسة قائلاً: "يوجد أب واحد للجميع، كلمة واحدة للجميع، والروح القدس أيضاً واحد وهو في كل مكان . وهناك واحدة فقط هي العذراء الأم . وأُحبّ أن أدعوها الكنيسة ..... لأنها عذراء وأم .... إنها نقيّة طاهرة كعذراء، ومحبّة كأم . هي تدعو أولادها وتغذيّهم من حليب مقدّس : الكلمة ."

وحيث إن مريم والدة الإله هي الكنيسة، فدوام عذرية مريم يشير أيضاً إلى دوام عذرية الكنيسة، والدة الإله والكنيسة يقفان معاً ويصونان بعضهما بعضاً كنسياً ومريمياً . لهذا فالكنيسة الأرثوذكسية تصرّ على كلّية قداسة العذراء مريم، لنفس السبب الذي تتكلم به عن الكنيسة أنها "مقدّسة" إنها العذراء الكلية القداسة، لأنها هي الكنيسة . وكما ان العذراء حملت بالروح القدس وولدت من غير زرع بشري هكذا الكنيسة أيضاً تلد ابناء بالمعمودية من غير زرع بشري بل من عنصر سماوي، لذلك يقول القدّيس بولس الرسول "ليس ذَكَر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غلا٣:٢٨) و"جسد واحد وروح واحد كما دُعيتم أيضاً في رجاءِ دعوتكم الواحد . ربٌ واحد، إيمانٌ واحد، معموديةٌ واحدة" (أفس٤:٤ - ٥) "وأمّا أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه افراداً" (اكو١٢:٢٧) .

القدّيس مثوديوس يمثّل "الكنيسة تَلد أولاداً"، لأن المستنيرين روحياً يأخذون ملامح وصورة المسيح، شبه الكلمة يُطبع عليهم ويولَد داخلهم بالمعرفة والإيمان، وهكذا يُولد المسيح في كل واحد، وتبقى الكنيسة تعمل مع كلّ ولد لها حتى يتشكّل ويُولد المسيح فيه، حتى أن كل قدّيس بمشاركته في المسيح يُولد ثانية كمسيح .... الذين يعتمدون في المسيح، يصبحون مُسحاً بعلاقة مع الروح القدس، إنها الكنيسة التي تؤثر في هذا التحويل إلى صورة واضحة للكلمة .

شفاعة والدة الإله

للقدّيسين إهمية كبيرة في الكنيسة الأرثوذكسية تنعكس على حياة المؤمن اليومية ؛ فهو يطلب شفاعتهم مستعيناً بصلواتهم لكي يتشدَّد في الجهاد، كما إن شفاعتهم تدخل بقوة في الليتورجية الكنسية، فالطقوس غنية بالتراتيل والأناشيد التي تُمجِّد الله في قدّيسيه، هناك قدّيس أو أكثر تكرِّمهم الكنيسة بالتسابيح يومياً تضمّ صلاتها إلى صلاتهم، وتطلب معونتهم وشفاعتهم لدى الرب يسوع المسيح وهي مقتنعة بأنها مقبولة ومستجابة . وأمثلة ذلك كثيرة منها :

من العهد القديم :

١ - شفاعة ابراهيم في سدوم وعموره (تك١٨:٢٣ - ٣٢) .
٢ - شفاعة ابراهيم في أبيمالك بأمر الرب (تك٢٠:١ - ١٨) .
٣ - شفاعة موسى في بني إسرائيل (خر١٧:٨ - ١٦، ٣٢:٧ - ١٤) .
٤ - شفاعة هرون في بني إسرائيل (عد١٦:٤١ - ٥٠) .
٥ - شفاعة صموئيل في بني إسرائيل (اصم ٧:٧ - ١٤) .
٦ - شفاعة أيوب في أصحابه بأمر الرب (أي٤٢:٧ - ٩) .

من العهد الجديد :

١ - صلاة الكنيسة من أجل بطرس حين كان في السجن (أع١٢-٥) .
٢ - يعقوب يطلب أن نصلِّى من أجل بعض . لأن "طِلبَة البار تقتدر كثيراً في فعلها" (يع٥:١٧) .
٣ - يوحنا رأى الملاك "يُعطى بخوراً كثيراً لكي يقدِّمه مع صلوات القدّيسين جمعيهم على مذبح الذهب أمام عرش الله" (رؤ٨:٣) .
٤ - بولس يطلب من الإخوة أن يُجاهدوا معه في الصلاة (رو١٥:٣٠) .
٥ - بولس يطلب من الأخوة أن يُصلُّوا من أجله (١تسا٥:٢٥) .

هذا قليل من الكثير من الأمثلة التي وردت في الكتاب المقدّس عن الشفاعة التي يقوم بعملها أقنومان :-

١ - الرب يسوع المسيح : الذي هو ذبيحة الفداء الوحيدة، وبدمه مغفرة الخطايا وهو الوسيط بين الله والانسان .

"لانه يوجد إلهٌ واحد، ووسيطٌ واحدٌ بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح" (اتي٢:٥)، وردت كلمة واحد في اليونانية (Eis) وتعني عدد (واحد) ولكنها لا تعني أبداً (فقط) أو (وحيد MONOS) ويجب أن نفهم معنى هذه الآية من الآية التي سبقتها . يقول القدّيس يوحنا الذهبي الفم بأن القدّيس بولس يشير إلى خلاص الجميع عندما كتب "مخلِّصنا الله" الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" (١تي٢:٣ - ٤) هنا يتكلّم الرسول عن الوسيط الكامل وموت المسيح الخلاصي، إذ أن المسيح هو إله حقيقي وإنسان حقيقي وهو الفادي الوحيد لليهودي والأممي على السواء .

"وإن أخطاء أحدٌ فلنا شفيعٌ عند الآب يسوع المسيح البار". (١يو٢:١) "الذي هو أيضاً عن يمين الله الذي أيضاً يشفع فينا" (رو٨:٣٤) .

٢ - الروح القدس : "ولكنّ الروح نفسه يشفع فينا بأنّات لا يُنطق بها. ولكنّ الذي يفحص القلوب يعلم ما هو اهتمام الروح. لأنه بحسب مشيئة الله يشفع في القدّيسين" (رو٨:٢٦ - ٢٧).

هذا هو الروح القدس الذي سكبه الله بغنى كمنحة فائقة الوصف على العذراء مريم في يوم البشارة "الروح القدس يحلّ عليك" (لو١:٣٥) وحلّ عليها أيضاً، وعلى الرسل والتلاميذ في يوم الخمسين، وما زال

يسكبه بفيض من بطن المعموديـــة المقـــدّسة، وبقـــدر ما يُقـــدِّم الإنسان المنسكب فيه الـــروح القدس مـــن طاعـــة وخضوع وتسليم كلّي لعمل الروح القدس في حياته ، عن طريق الممارسة اليوميـــة للفضـــائل وتتميم وصايا الرب بكمال المحبة، بقدر ما يتزكّى إيمانه قدّام الله، ويمتاز عن غيره ممّن يُعتبرون قدّيسين، والكنيسة من هذا المنطلق تعتمـــد فـــي ممارستها لشفاعة القدّيسين على مقدار تزكيـــة الله لـــهم . وباعتبـــار أن للعذراء مريم مكانة فريدة عند الله، فقد أعطته من جسدها وصارت أُمّاً له، وبالإيمـــان والطاعة لكلامه "ليكن لي كقولك" رسّخت علاقتـــها بـــه علـــى أساس الرسالة الإلهية التي جاء ليتمّمها .

إن شفاعة العذراء مريم تنبع من مكانتـــها الممتـــازة عنـــد ابنـــها وإلهها، التي تفوق مكانتها على جميع البشر وعلى الســـماويّين، ولـــها دالة خاصة لديه، وهذه الدالة ظهرت جلياً وبأقوى صورها في عرس قانـــا الجليل (يو٢: ١ - ٥) الذي هو رمزٌ لا زال قائماً، يتّخذ فيه الرب يســـوع المسيح دور الضيف الإلهي، والمدعوّين هم جنس البشر في كـــل العـــالم، والخمر التي فرغت هي الرجاء الذي يحتاجه العالم كل الزمان، وأجـــران التطهير فارغة إشارة إلى اخفاق الانسان وفقد الرجاء، القلـــوب بحاجـــة للانتعاش، والعيون تنظر إلى الأم في توسُّل، لكي تنقل حاجة البشرية إلى آذان الضيف الإلهي لكي يبدأ عمله العظيم .

حينما تقدّمت إليه بالسؤال "ليس لهم خمر" (يو٢: ٣) كانت شـــفيعة العُرس كلّه وشفيعة كلّ المتكئين في العالم، وستظلّ هكذا إلى الأبد، عونـــاً وشفيعة لمن ليس لهم عوناً . في هذا الحادث تبرز شفاعة العذراء بتقديـــم حاجتنا إلى المسيح بثقة ودالة وإيمان الأمومة، الذي دخـــل فـــي اختبـــار حقيقيّ وعـــلنيّ، إذ قـــال لها "مالـــي ولـــك يا امرأة. لم تـــأت ســـاعتي

بعد" (يو٢: ٤) وكأنه يصدّها صداً شديداً في الطلب، ولكنها بثقة ودالة قد أبلغت المسيح توسّلها ولا تنتظر منه غير التحقيق . وهي لا تلحّ ولا تكرِّر السؤال لأنها واثقة بتنفيذ ما سألته عنه .

إن هذا الاعتراض يعني، أن السيِّد قد أغلق باب الاستجابة الطبيعية، فلم تأتِ ساعته بعد لعمل الخدمة والمعجزات، ولو أن السيّدة العذراء إنسانة عادية في نظر المسيح لانتهى الأمر إلى هذا الحد . ولكن ما حدث إنه رغم وجود هذا الاعتراض فقد حوّل الماء إلى خمر حقيقي بسلطان لاهوته . فماذا يعني هذا الأمر ؟ إنه يعني أن للسيّدة العذراء مكانة خاصة ودالة مميّزة لدى المسيح، بها يتمّ تخطي العقبة الكبيرة التي ذكرها السيِّد المسيح، وهي "أن ساعته لم تأتِ بعد" وهو بهذا يُعلن أمام الجميع مدى كرامة السيِّدة العذراء عنده، فهو يجيب سؤالها بالعمل وكأنه يقول "رغم أنّ ساعتي لم تأتِ بعد ولكن شفاعة العذراء المقبولة وغير المردودة عندي تقتضي أن يحدث استثناء للقاعدة وتتمّ المُعجزة، إذ أن الطلب مرفوع من الأم الحنونة والشفيعة المؤتمنة في جنس البشر، فَقَبِل طلبها وحوّل الماء الى خمر حقيقي .

وكما تُمارس تقديم حاجتنا إلى المسيح، تُمارس أيضاً عملها معنا كأم ومربية، إذ توجِّه قلوبنا نحو وصايا الرب يسوع المسيح لنتمّمها بكل دقة "مهما قال لكم فافعلوه" (يو٢: ٥) . هذه هي الوصية الوحيدة التي قدمتها مريم العذراء للناس ولا تزال تُقدِّمها للعالم أجمع . فمريم هي أم الجنس البشري الذي تصلِّي من أجله وتتشفَّع فيه، إنها تستر العالم بجناحيها، وتُصلِّي وتبكى على خطايانا، وتعرضها أيقونة (الشفاعة) هي ويوحنا المعمدان معاً، تقدِّم للمسيح في يوم الدين صلاة الكنيسة، شفاعة الرحمة، وبهذا يقول القدّيس ثيودوروس الستوديتي "إن والدة الإله

قد أغمضت جفني جسدها، ولكنها ترفع الآن ألحاظ نفسها كنيِّرين مُشعّين عظيمين لا يستطيعان أن ينطفئا، لأنها تسهر علينا وتتشفّع لدى الله في حماية العالم" .

القدِّيس أمبروسيوس وجد حلقة الوصل بين التجسّد والفداء ويكتب "فقط مريم عملت من أجل خلاص العالم، فحبلت بفادي الجميع ومن خلالها "أُعطي الخلاص للكلّ" ويقول القدِّيس جيرونيمس (٣٤٧م- ٤٢٠م) : "الموت كان من خلال حواء، والحياة من خلال مريم" وكلمة خلال تعني (بواسطة) وتشير إلى دور الوساطة، لأنه من خلال مريم أشرق ابن الله على الذين في الظلام وفي ظلال الموت .

القدِّيس يوحنا الدمشقي (٧٥٠ م) يدعو مريم "المتوسِّطة" ويصوِّرها بسلَّم يعقوب ويكتب مخاطباً والدة الإله "باتمامكِ وظيفة الوساطة، أصبحتِ سلَّم الله الذي به انحدر إلينا، وأخذ على عاتقه طبيعتنا الضعيفة وضمَّها إليه ووحّدها معه . أنتِ جمعتِ معاً ما قد أنفصل" .

القدِّيس غريغوريوس بلاماس (١٣٥٩م) رآها "واقفة وحيدة بين الله والجنس البشري" جاعلة الله ابن الإنسان، والبشَر أبناء الله . وتؤكِّد العقيدة الأرثوذكسية بأن المسيح إله تام وإنسان تام وأن هذا الاتحاد لم يكن ليتم في شخص المسيح بدون مريم .

لقد عرف المسيحيون منذ الأزمنة الأولى قوة شفاعة والدة الإله الفائقة القداسة، فاستدعوها في صلواتهم وسألوها المعونة ممجدّين عظمتها دائماً، وشاكرين لها احساناتها . يسألونها المعونة في المصائب ويستسلمون لحمايتها، لانهم يُؤمنون بأن مخلِّص العالم لا يخيِّب أمه الفائقة البركات، إن هي توسّلت أمام عرشه الإلهي من أجل البشر، وهي تستجيب لهم بتنفيذ طلباتهم وصنع العجائب .

إن تاريخ الكنيسة غني بظهورات والدة الإله ولا يوجد مكان في العالم لا يخبِّر عن عجائب رحمتها، وقد أُلِّفت لها الكثير من الصلوات والمدائح، وعلى اسمها شُيِّدت الكنائس، وكُرِّست لها مدن وأديرة في مختلف أرجاء العالم. وكرّست الكنيسة الارثوذكسية أيّاماً كثيرة لأعيادها وذكرياتها وعجائبها .

كما إن التقليد الآبائي يُعلن بأن خلاص العالم يتم بشفاعة العذراء، وبهذا يقول القدِّيس يوحنا الدمشقي "إنها بالحقيقة صارت سيِّدة الخليقة عندما صارت أمًّا للخالق" فهي تسهر علينا وتَلِدِ المسيح في نفوسنا، وتتقدمنا في المجد لكي تحملنا مع الخليقة إلى مصيرنا الأخير .

نهاية حياة الفائقة القداسة والدة الإله الأرضية كانت بدء عظمتها، فقد تسربلت بالمجد السماوي وهي تقف اليوم وفي يوم الدينونة الأخير وفي الزمن المستقبل على يمين عرش ابنها تحكم معه، ولها دالة عليه كأمِّه بالجسد وواحدة معه في الروح، وكواحدة اتمّت إرادة الله وعلّمت الآخرين (متى٥:١٩)، شفوقة ومملوءة محبة، مُظهرة محبتها لابنها وإلهها بمحبتها للجنس البشري، تتشفّع له لمساعدة البشر . وحيث انها اختبرت صعوبات الحياة الأرضية لذا فهي شفيعة لكافة المسيحيين ترى كل دمعة، تسمع كلَ أنّةٍ تُوجَه إليها، خاصة أولئك الذين يعملون مجاهدين ضد الشهوات وبغيرة لحياة تَسرُّ الله . وهي مساعدة لا غنى عنها ولا تعوَّض حتى في الشؤون الدنيوية "هي فرح للحزاني، شفيعة للمتضايقين، مُطعمة الجائعين، مُعزّية للمسافرين، ميناء للمشتيين، زائرة للمرضى، حامية وشفيعة للعجزة، عكّاز للمسنّين، هي رجاء وشفيعة للمسيحيين، مخلِّصة العالم بصلواتها الدائمة .

تكريم والدة الإله

تتميّز السيِّدة العذراء عن غيرها من البشر والملائكة، فهي صورة للكنيسة ومستقرّ لحكمة الله، نتّخذها جميعنا أمّاً لنا، وكما قال أوريجنّس "لا أحد يستطيع تفهّم الإنجيل ما لم يتكىء أولاً في حضن يسوع ثم يتسلّم مريم لتكون أماً له هو أيضاً"، ويقول نيلوس أسقف أنقره "إنّها حقاً أم كل الذين يعيشون بمقتضى الإنجيل" وبلجوئنا إليها يجب أن لا ننسى أبداً أنها شفيعة فقط "بشفاعة والدة الإله يا مخلِّص خلّصنا" وأن الخلاص لا يتمّ إلاّ بالمسيح وبه وحده .

هنالك ألفاظ وعبارات تُقال في أوساطنا الشعبية الكنسية التي لشدّة محبتها المشروعة للعذراء تجعل منها محور حياتهم وتصل إلى حد عبادتها، وهذه الألفاظ والعبارات لم ترد في النصوص الأصلية أو في كتابات الآباء، لأن العذراء نفسها لا تطالبنا بعبادة دون عبادة المسيح والنص هي حدّدته "مهما قال لكم فافعلوه" .

كنيستنا الأرثوذكسية تقدّم السلام للعذراء بخشوع كبير واحترام، كما قدّمه لها الملاك ولكن بغير عبادة، وتكرّم العذراء كأم الإله تكريماً يفوق كل كرامة لأي ملاك أو رئيس ملائكة فهي أعلى من الشاروبيم والسارافيم، وتكريم كنيستنا لها يحدّده قولها "هوذا أنا أَمَة للرب"، فهي في التقليد الأرثوذكسي أُمّ وأَمَة، فكأم الإله نكرّمها ونعظّمها جداً ونتشفّع بها، وكأمة للرب لا نعبدها، كنيستنا تمجّد العذراء لا كملكة في السماء تجلس بمفردها، ولكن كملكة تقف عن يمين الملك "قامت الملكة عن يمينك" .

كنيستنا الأرثوذكسية ترى أن مجد أم الإله مجد مكتسب بسبب أمومتها ليسوع وليس طبيعياً، لذلك لا تقدّمه بشكل عبادة وإنما في صورة تكريم فائق، لذلك يتمسّك التقليد في الأيقونة أن لا تُرسم العذراء بمفردها، بل أن تُرسم حاملة المسيح على ذراعها الأيسر، قامت الملكة عن يمين الملك، وكنيستنا تقدّم البخور لله أمام أيقونة مريم العذراء الحاملة يسوع الطفل، لأنها أصبحت هي الهيكل الجديد الذي احتوى الحَمل المقدّس المعدّ للذبيحة، لذلك أصبح لائقاً أن يُقدَّم أمامها البخور لكي تشفعه هي بصلاتها عنّا فيرتفع البخور أمام الله حاملاً صلواتنا وصلواتها.

الينبوع المعطي الحياة

أورد المؤرخ الكنسي نيكوفوروس كاليستوس (١٣٥٠م) وصفاً لمكان سيِّدة الينبوع، نقتطف منه ما يلي :-

كان قديماً في جوار القسطنطينية على مقربة من الباب الذهبي مكان بديع مظلّل بأشجار السرو والدلب، مكرَّس منذ الأزمنة القديمة لوالدة الإله الفائقة القداسة، وفي وسطه ينبوع ماء أجرت عنده السيِّدة العذراء معجزات كثيرة . إلاّ أنه أُهمل على مرّ الزمان حتى طَمست معالمه الأوحال والأعشاب معيقة جريان الماء فيه.

مرَّ في هذا المكان الجندي لاون مركلوس، والتقى برجل أعمى تائهاً وقد ضلَّ في أماكن غير مسلوكة وقد أعياه التعب والعطش . فقاده إلى الطريق السوِّي وأجلسه في الظلِّ ليستريح، وأخذ يفتِّش عن ماء يُطفىء به غليل الأعمى وينعشه، فلم يجد، وسمع صوتاً يقول له "يا لاون لا تُجهد نفسك مفتشاً عن الماء، إنه قريب منك" . فأخذ لاون يُفتّش بدون جدوى وهو مرتعب وخائف من الصوت الذي سمعه، فعاوده الصوت قائلاً، "يا لاون الملك أُدخل هذه الغابة الكثيفة الظليلة، واستقِ من الماء الذي تجده فيها، وأروِ غليل الأعمى وامسح عينيه بطين من الينبوع ..... وابنِ على اسمي أنا العذراء كنيسة في هذا المكان". فأسرع لاون إلى الغابة المشار إليها، وأخذ ماء وطيناً من الينبوع وأتى إلى الأعمي، فسقاه وطلى عينيه بالطين، فأبصر للحال وقام ودخل المدينة وحده مبشِّراً بعجائب والدة الإله العظيمة وكان هذا في عهد الامبراطور مركيانوس (٤٥٠م - ٤٥٧م) .

لمَـا اعتلـى لاون مركـلوس عـرش المملكـة البيزنطـية (٤٥٧م - ٤٧٣م) تذكَر ظهور العذراء له عند الينبوع، فـأمر بتنظيفـه وتعميقه وبنى فوقه كنيسة فخمة على اسم والـدة الإله وسمىّ ذلك المـاء "الينبوع المعطي الحياة" لأن نعمتها العجائبية المُحيّيـة ظلّلتـه . فـأصبح ينبوع عجائب، يؤمّه المرضى والمعذّبون، ويحجّ إليه الملـوك والأمـراء والجند والشعب، وتُجري فيه السيِّدة العذراء المعجزات الباهرة . رتّبـت الكنيسة عيداً سنوياً للبتول "سيِّدة الينبوع المعطي الحياة" يُقام يوم الجمعـة من أسبوع الفصح المجيد، تعظيماً لقدرة والدة الإله التي أعطتنا المسـيح مصدر كل نعمة، وتذكيراً بشفاعتها غير المردودة وعجائبها العظيمة التـي تمّت عند ينبوعها.

وفي تاريخ نيكوفوروس كاليستوس وصف بليغ لجمال هذه الكنيسة، قال : أقيمت الكنيسة على طول الينبوع بهيأة المربّع الزوايا الجـانح إلـى الطول، ولها أربعة ابواب في الجهات الأربع للكنيسـة، وحـول القسـم الأعلى أُقيمت نصف دوائر ترتكز على أعمدة مقامة على أبعاد متسـاوية، وفي هذه الفُسح أُقيمت منافذ يدخل منها النور القوي على الينبوع، وكـان سقف الكنيسة مزدانا بالذهب وجدرانه مصفّحة بالفسيفسـاء، بحيـث أن النور ينعكس بدخوله عن السقف والجدران وينير الكنيسة .وفـي داخـل القبّة صُوِّرت عجائب المسيح ووالدته الفائقة القداسـة، وفـي وسـطها الينبوع الحامل الحياة وهو عبارة عن "جرن ماء كبير مذهّب علـى هيئـة جرن المعمودية تنصبّ مياهه من ثلاث فوّهات، تجلس في وسطه والـدة الإله، يداها مرفوعتان نحو السماء مصلّية ومتشفّعة، وفي حضنها يجلس الطفل يسوع، يُبارك بكلتا يديه وفوق والدة الإله ملاكان يحملان تميمتـان كتب عليها "السلام عليك، أيّتها الينبوع الصافي المعطي الحيـاة" وتحـت

جرن العذراء حوض فيه ماء، وإلى يمين الحوض ويساره الملك والبطريرك والأمراء والأميرات والمرضى يشربون ويغترفون من مياهه .

وقد كتب على جانبي الأيقونة باليونانية إسم والدة الإله من جهة مريم وعلى الجهة الأخرى والدة الإله وفوقها الينبوع المعطي الحياة، وكان رسم والدة الإله المتّجة إلى الماء ينعكس عنه كما عن مرآة . وكان الينبوع ذاته في وسط الهيكل، ينزل إليه بخمس وعشرين درجة عليها شبكة من المرمر للزينة ولوقاية النازلين من السقوط، وكان عند القسم الأعلى من الينبوع قعرٌ من المرمر يجري فيه الماء أوّلاً ثم يصبّ في حوض المرمر من منافذ، وفوق صحن الكنيسة كانت تقوم كأس من حجر مدوّرة، أما الموقف الآخر فهو ضيّق ومستطيل فكان عند المذبح، حيث كان الزائرون يغترفون الماء الحيّ بالقادوس .

في القرن السادس الميلادي بني الأمبراطور يوستينيانوس الاوّل (٥٢٧م - ٥٦٥م) كنيسة فخمة وديراً واسعاً قُرب الكنيسة التي أقامها الامبراطور لاون مركلوس، على أثر شفائه من مرض كاد أن يودي بحياته بعد أن شرب من ماء الينبوع .

وبسبب تغيّر الأخلاق وانعدام التقى، فقدت القسطنطينية حماية شفيعتها فسقطت بيد الأتراك سنة (١٤٥٣م) وهدمت الكنيسة الفخمة، وبني بحجارتها جامع السلطان بيازيد وبقيت بدلاً منها كنيسة صغيرة، إلاّ أنها هدمت أيضاً سنة (١٨٢١م) وغار فيها ينبوع الماء، وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨م - ١٨٣٩م) ألغي المنع واستحصل الأرثوذكسيون على رخصة بإعادة بناء الكنيسة الصغيرة . ابتدأ العمل في ٢٧ تموز ١٨٣٣م وفي أثناء العمل عُثر على أساسات الكنيسة القديمة، فصدرت رخصة جديدة سلطانيّة في ١٤ ايلول ١٨٣٣م لبناء

كنيسة كبيرة، فأنجز العمل فيها في ٣٠ كانون الاول ١٨٣٤م، وفي ٢ شباط ١٨٣٥م دشّنها البطريرك المسكوني قسطنديوس الثاني مع اثني عشر من رؤساء الكهنة المتقدّمين في قدّاس احتفالي حضره جمهور غفير من المسيحيين تمجيداً لوالدة الإله وافتخاراً لابناء الكنيسة الأرثوذكسية المقدّسة . ولا تزال هذه الكنيسة قائمة حتى اليوم وبقربها مستشفى ومأوى للفقراء .

إن تسمية والدة الإله "الينبوع المعطي الحياة" يدلّ على أنها الينبوع المفيض الحياة والخلاص للعالم، وعلى أنها لا تزال تفيض برحمتها العظيمة المعونة الغزيرة للمؤمنين، وجاء في كتاب السواعي الشريف في يوم الجمعة من اسبوع الفصح المجيد كانت في خارج مدينة القسطنطينية في المكان المعروف (بابتابيرغي) أي الأبراج السبعة كنيسة على اسم والدة الإله عظيمة الشأن جميلة جداً بناها الملك لاون الثراكس الملقب بماكلي في أواسط القرن الخامس بالقرب من ينبوع ماء أظهر معجزات كثيرة في أوقات مختلفة شافياً أمراضاً متنوعة بنعمة والدة الإله التي منها لقب "بالقابل الحياة أو بالاحرى المانح الحياة" .

قنداق على اللحن الثامن

أيتها المنعم عليها من الله الينبوع الذي لا يفرغ . تفيضين علينا بغير انقطاع أشفية نعمتك بما يفوق الوصف . لأنّكِ ولدتِ الكلمة بحال لا يُدرك . فأبتهل إليكِ ان تُندّيني بنعمتكِ . لكي أصرخ نحوكِ هاتفاً : إفرحي يا ماءً مُخلِّصاً .

قائمة المصادر والمراجع

العـــــــــــــربية

١- الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد .

٢ - حياة العذراء والدة الإله على الأرض: ترجمـــــة الأرشمندريت توما المعلوف ١٩٥١م .

٣ - العائلة المقدّسة في مصر : أبناء كاروز الديار المصرية .

٤ - رحلة العائلة المقدسة إلى مصر ومنطقة مصر القديمة : دير الشهيد العظيم مار جرجس للراهبات بمصر القديمة ١٩٩٩ .

٥ - المسيح في مصر : دياكون الدكتور ميخائيل اسكندر .

٦ - الكنيسة الارثوذكسية إيمان وعقيدة - تيموثي وير ١٩٨٥ .

٧ - الرؤيا الأرثوذكسية لوالدة الإله : منشورات النور ١٩٨٢م .

٨ - تفسير نبوءات إشعياء : الدكتور انطون يعقوب ميخائيل ١٩٩٣ .

٩ - مجموعة الشرع الكنسي : منشورات النور ١٩٧٥م .

١٠- العذراء القديسة مريم (Theotokos) - الأب متى المسكين ١٩٩٣م.

١١- مريم العذراء في العقيدة : القمص سيداروس عبد المسيح ١٩٩٥م .

١٢- كتاب السنكسار - المطـــران ميخائيل عساف - الجـــزء الأوّل - الطبعة الثالثة ١٩٤٧م .

١٣- كتاب المينـــــاون : مطبعة القبر المقـــدّس البطريركية المختصة بديـــــر الروم العامر - اورشليم ١٩١١م .

١٤- كتاب تريوديـــون : مطبعة القبر المقـــدّس البطريركية المختصة بدير الروم العامر - اورشليم ١٨٩٨م .

١٥- كتاب بنديكستاريون : مطبعـــة القبر المقـــدّس البطريـــركية المختصـــــة بديـــــر الروم العامر - اورشليم ١٨٨٨م .

١٦- كتاب السواعي الكبير : مطبعة القبر المقدّس البطريركية المختصة بدير الروم العامر - اورشليم ١٩٦٣م .

١٧- الصور المقدّسة أو الأيقونات : الأرشمندريت أنطون هبيّ ١٩٦٨م .

الإنجليزيـــــــــــــــــــــة

1 - The Life Of The Virgin Mary, The Theotokos .
"Holy Apostles Convent And Dormiton Skete,
Colorado, 1989" .

2 - Orthodox Dogmatic Theology .
"Holy Trinity Monastery, Jordanville 1963" .

3 - The Orthodox Veneration Of Mary The Birth Giver Of God .
"St. Herman Of Alaska Brotherhood 1978 .

4 - Lost Books Of The Bible
"The Gospel of The Birth of Mary"
"Alpha House, Inc. 1926" .

5 - Mary and the Fathers of the Church .
The Blessed Virgin Mary in Patristic Thought
"Ignatius Press San Francisco 1999 .

6 - The World Book Encyclopedia . Vol. 17 S-SN

كتب للمؤلف

مناهج تعليمية :

١ – المُرشد – الجزء الأوّل – منشورات مدارس الأحد
٢ – الطالب – الجزء الأوّل – منشورات مدارس الأحد
٣ – المُرشد – الجزء الثاني – منشورات مدارس الأحد
٤ – الطالب – الجزء الثاني – منشورات مدارس الأحد
٥ – المُرشد – الجزء الثالث – منشورات مدارس الأحد
٦ – الطالب – الجزء الثالث – منشورات مدارس الأحد

لاهوتية وآبائية :

٧ – طريق الخلاص – سر التوبة والاعتراف
٨ – سِيَر القدِّيسين – الجزء الأوّل
٩ – حياة السيّدة العذراء مريم – ينبوع الحياة

تُطلب من:

جمعية الثقافة والتعليم الأرثوذكسية

تلفون : ٥٦٧٤٤١٩ – ٥٦٧٤٤١٨ – ٥٦٧٦٥٨٩

فاكس : ٥٦٠٦٨٧٣

ص. ب: ٩٤١٥٠٢ عمان ١١١٩٤ الأردن